مجلات أميركية
JOURNAL USA

الولايات المتحدة سنة 2005 :

من نحن اليوم

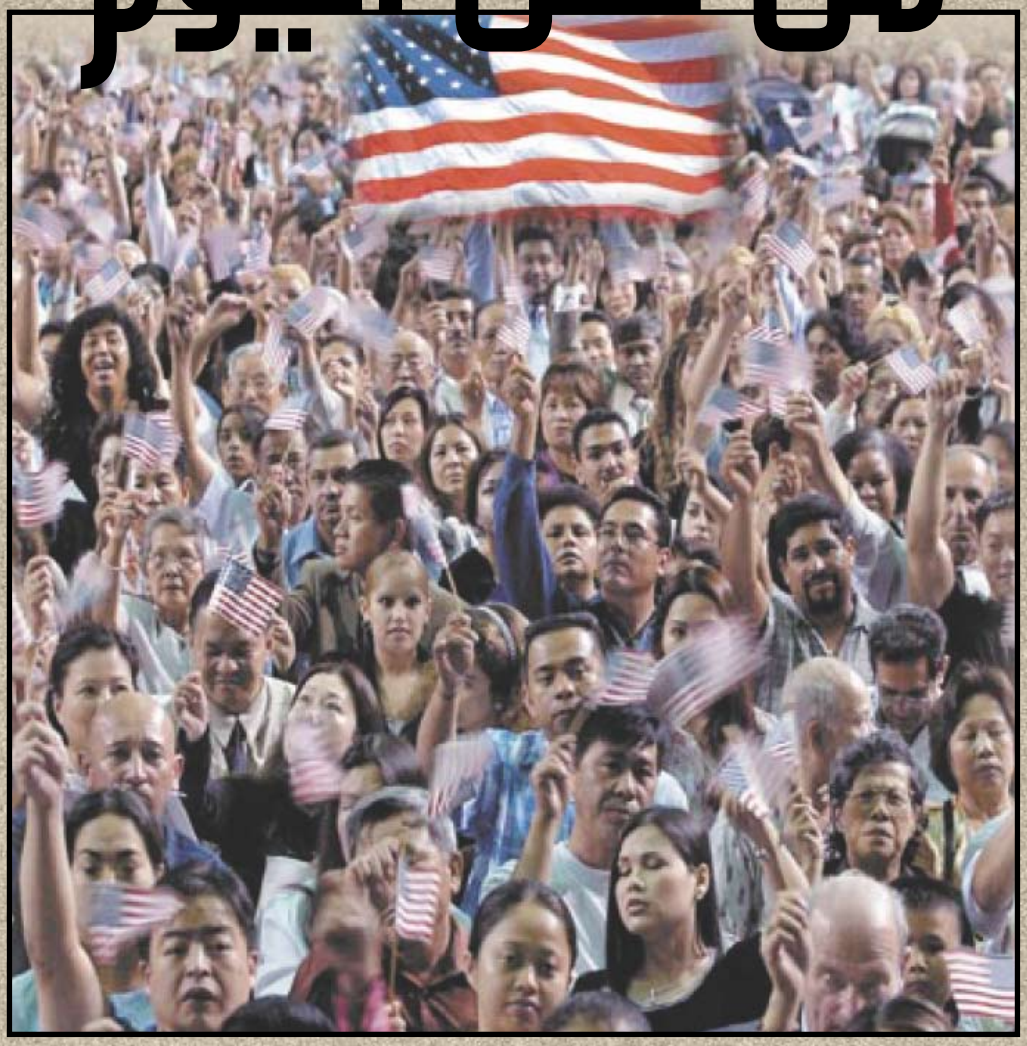

وزارة الخارجية الأميركية / مكتب برامج الإعلام الخارجي

الولايات المتحدة سنة 2005 :

من نحن اليوم

يوفر مكتب برامج الإعلام الخارجي بوزارة الخارجية الأميركية منتجات وخدمات تشرح سياسات الولايات المتحدة والمجتمع الأميركي والقيم الاميركية إلى القراء الأجانب. ينشر المكتب خمس مجلات إلكترونية تبحث في المسائل الرئيسية التي تواجه الولايات المتحدة والمجتمع الدولي. وتنشر هذه المجلات بيانات السياسة الاميركية مع التحليلات والتعليقات والمعلومات الخلفية في مجالات مواضيعها وهي: مواقف إقتصادية، وقضايا عالمية، وقضايا الديمقراطية، وأجندة السياسة الخارجية الأميركية، والمجتمع الأميركي وقيمه.

تنشر جميع الإصدارات باللغات الإنكليزية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية، وتنشر مواضيع مختارة منها باللغتين العربية والروسية. تُنشر الإصدارات باللغة الإنكليزية كل شهر تقريباً، وعادةً يتبعها نشر النصوص المترجمة بعد مدة تتراوح بين أسبوعين وأربعة أسابيع.

إن الآراء الواردة في المجلات لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات حكومة الولايات المتحدة ولا تتحمل وزارة الخارجية الأميركية أية مسؤولية تجاه محتوى المجلات أو فيما يخص الوصول المستمر إلى مواقع الانترنت الموصولة بهذه المجلات. تقع هذه المسؤولية بصورة حصرية على الناشرين في هذه المواقع. يمكن استنساخ وترجمة المواد الواردة في هذه المجلات في خارج الولايات المتحدة الأميركية ما لم تكن المواد تحمل قيوداً صريحة على مثل هذا الاستعمال حماية لحقوق المؤلف. يجب على المستعملين المحتملين للصور الفوتوغرافية المنسوبة إلى مصورين محددين الحصول على إذن باستعمالها من أصحاب الصور.

توجد الإصدارات الجارية والسابقة لهذه المجلات وجداول بالتواريخ اللاحقة لصدورها على الصفحة الدولية الخاصة بمكتب برامج الإعلام الخارجي على شبكة الانترنت في الموقع:
http://usinfo.state.gov/journals/journalsarab.htm
وتتوفر هذه المعلومات وفق برامج كمبيوتر متعددة لتسهيل تصفحها مباشرة أو نقل محتوياتها أو استنساخها أو طباعتها.

Editor, eJournal USA
IIP/T
U.S. Department of State
301 4th Street SW
Washington, DC 20547
United States of America
E-mail: iiptcp@state.gov

حول هذا العدد

نحن شعب الولايات المتحدة في عام 2005 – من نحن؟ لمّا كان هناك حوالي 300 مليون مواطن أميركي، فسوف نجد ملايين الأجوبة عن هذا السؤال. نحن، بصفتنا محررين، أخذنا على عاتقنا مهمة شبه مستحيلة في هذه المجلة: أي محاولة وصف من هو شعب الولايات المتحدة اليوم، وفي أقل من خمسين صفحة. ورغم الصعوبة، يبقى بوسعنا قول بعض الأمور الأكيدة.

إن عدد سكان الولايات المتحدة في ازدياد مستمر، وهي موطن لسكان أكثر فأكثر تنوعاً، تمتد جذورهم لتربطنا اليوم بكل زاوية من زوايا المعمورة. والواقع هو أن اللغات التي نتكلمها نحن الأميركيون، والأماكن التي نمارس فيها عباداتنا، والمأكولات التي نضعها على موائدنا، تُشكل صورة مصغرة عن العالم أجمع. إننا نعتز بحرياتنا، وبشخصيتنا الفردية، ونتوقع مستقبلاً أكثر إشراقاً لأطفالنا. وفي نفس الوقت، نتناقش بحماس في ما بيننا حول كيفية الحفاظ على تلك الحريات، وحول التعبير عن هويتنا الفردية، وضمان غد أفضل. إن تعبير»أميركي» تعبير «شمولي» نستخدمه بتوسع ودون تحفظ، ذلك أن ما يعنيه أن يصبح المرء أميركياً هو أنه يتبنى مجموعة من المثل العليا، وينتهج طريقة حياة معينة، لا أن يجسد مجموعة إثنية أو ثقافة مُعيّنة، أو ديناً معينا. ورغم أننا مجتمع يكثر أفراده من التنقل، فإن الصلة أو الارتباط بمكان معيّن، هو في كثير من الأحيان الحي الذي نشأنا فيه أو البلدة التي ترعرعنا فيها، أمر مهم بالنسبة لنا.

نبدأ في هذا المجلة، بتحديد الصفات والقيم التي تحدد هوية الأميركيين على أفضل نحو. في المقال الأول، يصف الباحث مارك باكتر كيف تجتمع هذه السمات والقيم، رغم أنها غير مقتصرة على أميركا، في الولايات المتحدة لتشكل هوية أميركية فريدة في نوعها. يعقب ذلك تحليل لعالمة الديموغرافيا، أودري سنغر، لأحدث الحقائق والأرقام لإعطائنا لقطة سريعة عن سكان الولايات المتحدة في عام 2005. ومن ثم نلقي نظرة على 13 أميركياً، بعضهم مشهور، ولكن معظمهم من المغمورين. ومن خلال هذه النبذ القصيرة عن سيرهم، نقدم لمحة خاطفة عن التنوع الأميركي، وعن الكيفية التي يعيش فيها الأميركيون حياتهم اليومية، والأمور المهمة بالنسبة لهم. ثم نتناول بعض النقاشات الاجتماعية القائمة حالياً. وقد كانت هذه المناقشات والمجادلات جزءاً ملازماً للمجتمع الأميركي منذ قيام بلدنا. ومن المفارقات أن احترامنا للفرد، ولحقّه في التعبير عن نفسه بحرية وحماس حول القضايا المثيرة للخلاف، يُشكّل أحد الأسباب الرئيسية لبقاء بلادنا متحدة طوال أكثر من 200 عام. ونختتم هذا العدد من المجلة برحلتَي عودة إلى الديار بعد غياب سنين عديدة: وبالنسبة للكاتب الأول، لم يعد من الممكن التعرف على المكان الذي كان يعتبره الديار التي نشأ فيها؛ أما بالنسبة للكاتب الثاني، فلم يتغير شيء تقريبا. وهناك بعض المعلومات الإضافية في هوامش المقالات توضح عدداً من القيم التي ظلت من خصائص بلدنا المميزة طوال تاريخه.

المحتويات

الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٥: من نحن اليوم

الهوية الأميركية
مارك باكتر، مدير ناشيونال بورترايت غاليري، مؤسسة سميثسونيان
يتناول الكاتب «العقد الاجتماعي المستديم» الذي تقوم عليه الولايات المتحدة الأميركية، ويقول إن النقاش القومي الدائر حالياً حول القيم الأميركية لا يمثل رفضاً لتلك القيم بل اختباراً لانطباقها على ظروف آخذة في التوسع.

من نحن: وجه أميركا المتغيّر
أودري سينغر، باحثة في شؤون الهجرة في مؤسسة بروكنغز
سرعة وتنوع الهجرة المعاصرة تُغير بسرعة التركيبة العرقية والإثنية للولايات المتحدة، كما أن الأميركيين يُعرّفون عن أنفسهم أكثر فأكثر بتعابير متعددة الأعراق. هناك نبذة منضدة ضمن إطار عنوانها، «من يمكنه أن يصبح مواطناً أميركياً»، تصف سبب كون الجنسية الأميركية بلا حدود إثنية.

نبذات عن سيَر
مراسلونا المنتشَرون على نطاق واسع رسموا لنا صوراً عن ثلاثة عشر فرداً تعطي قصصهم الفردية صورة مركبة، ولكن أبعد من أن تكون كاملة، عن الولايات المتحدة لعام 2005. يضم هؤلاء الأشخاص تشكيلة واسعة ومنوعة من الأميركيين العاديين إضافة إلى عدد قليل من الشخصيات التي ربما تكونون قد سمعتم عنها.

هبة أبوغديري: أستاذة جامعية، إنِس إليزوفتش: طالب جامعي، هيلين فيتزهيو: أستاذة علوم، ريموندو غوفيا: مُشرف على هندسة الحدائق، مايكل جينبو: مدير فرقة موسيقية، ستيفن جونسون: رجل أعمال دولي، آن كورف: مديرة كورس غنائي، كاتبة الخ ...، هالي، جويل أوزمنت: مُمَثّل، كولن باول: جندي ورجل دولة، كريغ سافو: مربي فهود، رينيا سلايتر: قسيسة، دبليو. ريتشارد وست: مدير متحف، راي وديان يونغ باركر: صاحبا مطعم

البقاء متحدين
كانت النقاشات حول القضايا السياسية والدينية والاجتماعية جزءاً ملازماً للمجتمع الأميركي منذ تأسيس الولايات المتحدة، ورغم ذلك لا تزال الولايات متحدة.

من الكثرة واحد، ما زال ذلك صحيحا؟ نعم
ألان وولف، أستاذ العلوم السياسية ومدير مركز بويزي للدين والحياة العامة الأميركية في كلية بوسطن (مساتشوستس)
إزاء هذا التنوع الكبير، بدأ البعض يقولون إن الأميركيين يفتقرون إلى ثقافة مشتركة. إنهم مخطئون.

النقاش بشأن الهجرة
مايكل بارون، كاتب رئيسي في مجلة «يو إس نيوز أند وورلد ريبورت»، وفكتور هانسون، بحاثة في مؤسسة هوفر
يناقش خبيران وجهتي نظرهما المتباينتين حول التأثير الذي تخلفه اتجاهات الهجرة الحالية في الولايات المتحدة.

العودة إلى الديار مجدداً

وادٍ في كاليفورنيا

جيمس هيوستون، روائي

حلت المساكن على الأراضي التي أُعيد تقسيمها ومؤسسات التكنولوجيا المتطورة محل بساتين شجر البرقوق والمحاصيل الأخرى التي درج رجال مثل والد الكاتب على حصادها، كما حولت موجات المهاجرين وادي سانتا كلارا في كاليفورنيا إلى خليط غني من الثقافات.

بلدة في وست فرجينيا

هنري لويس غايتس جونيور، أستاذ دبليو. إي. بي. دوبوا للعلوم الإنسانية في جامعة هارفرد، ومدير معهد دبليو.إي.بي. دوبوا للأبحاث الإفريقية والإفريقية الأميركية.

في هذا المقال الذي سبق ونشر في مجلاتنا الإلكترونية، يتمعن الكاتب في ما كان يعنيه النشوء والترعرع في بيدمونت، في وست فرجينيا. ويطلعنا المراسل، مارك جاكوبس، على أحدث المستجدات في تلك البلدة الصغيرة الواقعة في جبال أبلاشيا.

لمزيد من المعلومات

- بيبليوغرافيا (باللغة الإنجليزية)
- مواقع مقترحة على شبكة الإنترنت (باللغة الإنجليزية)

الهوية الأميركية

مارك باكتر

"تتعين رؤية النشاط السياسي المنتشر في الولايات المتحدة لأجل فهمه. فمنذ اللحظة التي تطأ فيها قدماك الأرض الأميركية، يُذهلك نوع من الضوضاء والصخب والفوضى. ... يستحيل بذل جهد أكبر في السعي وراء السعادة."
– ألِكسيس دو توكفيل، "الديمقراطية في أميركا."

الرئيس جورج دبليو بوش يتوسط 29 مواطناً جديداً حصلوا على الجنسية الأميركية أخيراً، أمام تمثال الحرية في إليس آيلاند في نيويورك. (أسوشيتد برس / رون إدموندز)

يتناول الكاتب في هذا المقال "العقد الاجتماعي المستديم" الذي تقوم عليه الولايات المتحدة الأميركية والذي يُحدّد هوية المجتمع القومي وثقافته. وهو يقول إنه "لم يكن هناك، منذ البداية، الكثير من "اليوطوبيا" (النظام الاجتماعي المثالي الخيالي) في السياسة الأميركية السائدة، ولم يكن هناك الكثير من التصور لإقامة الدولة المثالية أو بناء حالة إنسانية مثالية من خلال التخطيط الاجتماعي. ويضيف أنه "على العكس من ذلك، كانت عملية الكفاح الدؤوب بحد ذاتها، عملية التحوّل والوصول، وتجربة العيش غير المُقيّد، هي التي تُثير الخيال القومي". أكثر ما يكشف عن ذلك بوجه خاص، كلمات معينة مثل الحرية، والخصوصية الفردية، وقابلية التنقل، والبراغماتية (أي الاستشراف العملي للأمور)، التي "تعكس الروح الأميركية". ولا يُمثّل النقاش القومي الحالي حول القيم الأميركية رفضاً لتلك القيَم بل هو تجربة لتطبيقها على ظروف موسعة. ولقد كان السؤال الصعب الذي تعين على الديموقراطية الأميركية أن تجيب عليه دوماً السؤال المتعلق بالعلاقة بين المساواة والحرية.

"تتعين رؤية النشاط السياسي المنتشر في الولايات المتحدة لأجل فهمه. فمنذ اللحظة التي تطأ فيها قدماك الأرض الأميركية، يُذهلك نوع من الضوضاء والصخب والفوضى. ... يستحيل بذل جهد أكبر في السعي وراء السعادة."
– ألِكسيس دو توكفيل، "الديمقراطية في أميركا."

كثيراً ما تبدأ محاولات تحديد طبيعة المجتمع الأميركي باستشهاد من رائعة ألكسيس دو توكفيل التي وضعها في القرن التاسع عشر، "الديمقراطية في أميركا". واللافت هو أنه أمكن وضع كتاب قبل أكثر من 150 سنة، عن بلد يُعتقد أنه في تغيّر مستديم ويعتنق الحداثة والتحديث دون هوادة ويفتقر تماماً إلى أي تعلق بالتقاليد، يبدو أنه ما زال وصفاً صائباً إلى أبعد حد للوضع الحالي. وما يدعو إلى قدر أكبر من الاندهاش هو أن دراسة توكفيل عن شعب كان في معظمه ريفياً وبروتستانتياً وأنغلو – سكسونيا (ومن الأميركيين الأفارقة العبيد) قادرة على عكس روح والتحدث عن الدولة الحضرية الصناعية المتعددة الثقافات التي يقطنها اليوم مئات الملايين بنشاط لا يهدأ.

وإذا ما كانت الملاحظات التي أُبديت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ما زالت تنطبق على أميركا مطلع القرن الحادي والعشرين، فمن المنطقي افتراض تصوّر وجود طبيعة دائمة تشكل "صميم" أو جوهر المجتمع الأميركي. إلا أنه يتعين على المرء، كي يفهم هذا الجوهر، أن يُميّز بين مفهوم أميركا للانتماء القومي، وبين مفهوم المجتمعات التقليدية التي تستمدّ هويتها من روابط دينية وإثنية، ومن ذاكرتها الجماعية. ويتطلب منا الحديث عن هوية أميركية إعادة النظر في ما يحافظ على ترابط مجتمع قومي متماسك وما يُشكل ثقافة قومية.

إن كوْن الإنسان أميركياً تماماً، حسب تعريف الولايات المتحدة لمواطنيها، لا يستلزم ارتباط الأجداد بالأمة أو بثقافاتها الإثنية أو تقاليدها الدينية السائدة. فالأميركيون كأفراد يتشاركون في عدد وافر من الثقافات التاريخية، ولكن الأمر المشترك بينهم أمر مختلف تماماً. ففي صميم انتمائهم القومي هناك عقد اجتماعي ثابت وهناك أيضاً العملية النشطة التي يحرّكها هذا العقد. ومُهمّة هذا المقال هي تقديم لمحة عن روح هذا العقد ومغزاه وعن تطور تلك العملية.

الخيار والمسؤولية

لا يتطلب الانخراط في عضوية المجموعة القومية سوى اتخاذ القرار بأن يُصبح المرء أميركياً، وهو قرار سياسي يتضمن بُعداً أخلاقياً كذلك. فمن المفترض أن جميع الأميركيين، بمن فيهم المولودون في الولايات المتحدة، هم أميركيون بالخيار وليس لمجرد إرثهم التاريخي. وقد يكون الشغف بال "خيار"، في الواقع، هو السمة الرئيسية للمجتمع وقيمته الرئيسية أيضا. إنه النمط النشط للحرية وهو يفترض ليس انعدام الكبت السياسي أو الاقتصادي وحسب، بل وأيضاً فرصة الاختيار بين تشكيلة غنية من الإمكانات. ويشبع المجتمع هذه القيمة، في أكثر مظاهرها تفاهة، من خلال توفير تشكيلة خيارات لا متناهية، وفي الكثير من الأحيان لا معنى لها، من السلع الاستهلاكية.

وينطوي حب الاختيار، على مستوى أعمق، على ذكرى فرصة الهروب من الحياة المنعدمة فرص التقدم في الثقافات السلفية وإمكانية خلق الحياة التي يختارها المرء لنفسه في عالم جديد. ويكرر الكثير من الأميركيين هذا النمط من الهجرة، إما فعلياً، بانتقالهم إلى الولايات الغربية، أو رمزياً، في حياتهم المهنية أو الاجتماعية، عبر السعي وراء بداية جديدة، وفرصة ثانية. وفي حين أن التجارب المأساوية التي عاشها الأميركيون الأصليون والأميركيون الأفارقة عكست روح الخيار القومية تلك كأمر صوري زائف، إلا أن من مروا بتلك التجربة باتوا يطالبون اليوم بحقهم في صياغة مصيرهم وفي المشاركة في الخيارات التي يفترض أنها حق كل أميركي بالولادة.

تُؤمن أميركا بابتكار الذات، وتُمجّد "الرجل العصامي"، والآن "المرأة العصامية". وتقوم في صميم هذا الإيمان، القناعة بأن الظروف الموروثة والسلفية أقل أهمية بكثير من الاتجاه الذي يختاره المرء لنفسه، ومن الجهد الذي يوظفه في ذلك الخيار. فأبطال أميركا "يأتون من بدايات متواضعة جداً" و"يصنعون أنفسهم بأنفسهم"... وباستثناء الحواجز العرقية العنيدة الراديكالية، التي ستناقش لاحقاً، يفترض الأميركيون بالنسبة لأنفسهم، ولغيرهم، أن أصولهم قد تُغني حياتهم، لكنها لا تصوغ مصيرهم.

ورغم أن هذا المفهوم كافتراض ومثال أعلى مفهوم يحرر المرء،إلا أن مفهوم الحرية الاجتماعية والاقتصادية هذا نفسه يضع على عاتق الفرد عبء مسؤوليته الشخصية عن مصيره. ففي مجتمع في حالة من التحّول الدائم، لا وجود للثوابت الاجتماعية والاقتصادية المطلقة، ولا تسامُح إزاء عجز المرء عن تحسين وضعه، لأي سبب كان. فعندما يُحبط الطموح ويحرم المرء من الرخاء، يرى الأميركيون في ذلك انحرافاً عن الحال الطبيعي للأمور.

ورغم أن عشق الخيار هو مُحرّك الشخصية الفردية الأميركية، فانه يؤمّن أيضاً آلية تصحيح للسلوك الأناني. وقد يبدو الأميركيون، من وجهة نظر المجتمعات التقليدية، بمثابة أمة من الأفراد المنفصلين عن بعضهم البعض ضمن مجتمع في حالة تداع اجتماعي لا رادع له؛ غير أن الأميركيين في الواقع لم يُلغوا الشعُور بالواجب الاجتماعي، بل استبدلوا فقط قاعدته الوراثية.

فالأميركيون اجتماعيون، ومتطوعون، ومُحسنون. إنهم يتحملون سلسلة من الواجبات والمسؤوليات اختاروها بحرية، فيسخّرون فرديتهم بذلك لتحقيق أهداف اجتماعية. وإذا كان الأوروبيون والآسيويون والأفارقة والأميركيون اللاتينيون يستغربون الافتقار إلى الشعور بالانتماء إلى العائلة الموسعة، والارتباط بالأجداد والأسلاف، والولاء لطبقة معينة في الولايات المتحدة، فإن

الأميركيين بدورهم يستغربون هم أيضاً ما يرونه كتردّد غير سخي من جانب أعضاء الثقافات التقليدية في الانخراط في الفرص غير الدينية وغير العائلية للعمل الطوعي، وفي تقديم المساعدات المالية للقضايا التي تستحقها.

مبدأ الانتقائية كقيمة

قرن المجتمع الأميركي بين نظام اختيار أخلاقي ومجموعة لا نهاية لها من التقاليد والأفكار والفرص. فمزيج الشعوب والتقاليد التي يصادفها المرء في الحياة اليومية الأميركية والانفصام الدراماتيكي الذي عاشته معظم المجتمعات لدى هجرتها من أوطانها الأم أديا إلى ممارسة أخذ العيّنات والاستعارة والمزج بين الأنماط والطقوس، وفوق كل شيء، الطعام. هذه الانتقائية التي قد تبدو مشوشة فوضوية في نظر الثقافات الأكثر توحداً تاريخياً، تصبح في أميركا قيمة ومَعلماً يدل على الحيوية. فهي التي ترسم الشكل القومي، في نهاية المطاف، للكثير من فنون وآداب البلد. فقد اعتبر الفنانون والكتّاب والمهندسون المعماريون الأميركيون أن من حقهم انتقاء واختيار عناصر من الثقافات الأجنبية والمحلية وجمعها في بوتقة أميركية متكاملة جديدة.

وجد التفاعل والتغير المستمر الذي يشكل صميم نظام القيم والمعتقدات والهوية الأميركي أول تعبير له بأكثر الأشكال عاطفية وحماساً في "الحقوق غير القابلة للتصرف فيها" لجميع المخلوقات البشرية، وهي الحقوق التي نص إعلان الاستقلال (سنة 1776) على أنها "الحياة والحرية والسعي وراء السعادة". ولم تكن السعادة هي التي طالب بها واضع الإعلان، توماس جفرسون، لسكان بلاده ولكل الإنسانية، بل حق "السعي وراء" السعادة. فمنذ البداية، لم يكن هناك إلاّ القليل جداً من اليوطوبيا في الحياة السياسية الأميركية العامة، والقليل من الإحساس بدولة مثالية أو بحالة إنسانية مثالية يتم تشييدها من خلال التخطيط الاجتماعي. بل بدلاً من ذلك، كانت تجربة الكفاح الدؤوب نفسها، وحُب التحوّل الذاتي، وتجربة الحياة غير المُقيّدة، هي التي تُثير الخيال القومي. والكلمات التي تستثير شعور الأميركيين تكشف عن هذا: "الحرية"، "القدرة على التنقّل"، "الشخصية الفردية"، "الفرص"، "التجدد"، "المنافسة". ليست هذه كلمات جافة وصفية؛ إنها تعكس الروح الأميركية.

خلال حملته الرئاسية الناجحة سنة 1992، اختار بيل كلينتون لحشد قوى مؤيديه إحدى أكثر الكلمات إثارة للعواطف في المعجم الأميركي: "التغيير". ويعود جزء من جاذبية التغيير في الثقافة الأميركية إلى الأمل بأن كل تغيير سوف يأتي بالتحسين. لكن التوقعات المتفائلة بأن التغيير يُمثّل، في ذات نفسه، تقدماً تبقى أقل أهمية بكثير من الميل القوي إلى كرَه، أو حتى الخوف من، استمرارية السلطة أو السياسة. وخلال النقاش حول الموافقة على الدستور المقترح، حذّر توماس جفرسون من أن حتى السماح للرئيس بالبقاء في منصبه أكثر من فترة واحدة مدتها أربع سنوات، دون تناوب مضمون، قد يقود إلى تحوّله عملياً إلى "موظّف لمدى الحياة". وكان هاجس جفرسون مبنياً على الافتراض الأميركي الأساسي بأن السيادة تنبع من الشعب، وأنها تُمنح إلى شاغل الوظيفة لوقت معيّن وبشروط محددة.

حدود السلطة

إن المقصود من طبيعة العملية السياسية الأميركية الخصامية المضطربة المهتاجة هو تأمين الضمانة ضد التّحصن والترسخ في المناصب. ذلك أنه لا يمكن الوثوق بأي شخص أو حزب إلى حد ائتمانه على السلطة لفترة مفرطة الطول. فالناس قابلون للإفساد، والسياسات تفقد نكهتها مع الوقت. وعندما يحتل حزب ما البيت الأبيض لفترة مفرطة الطول، يظهر بين الناخبين نوع من التململ. وما من مجموعة من الأفكار أو القادة يمكنها الاحتفاظ بولائهم على مر الزمن. إن ديناميكية النظام نفسه هي التي تُعطي الأميركيين ما يحتاجونه وما يثقون به: توازن بين القوى، ورصد للحقيقة عبر التحدّي والكشف، وتذكير بنزوات وخطر السلطة، وبفوائد التغيير والنمو والتجربة، وأخيراً وليس آخراً، بسحر الانطلاق من جديد.

تكمن المفارقة، إذن، في أن أميركا تُحقّق استمراريتها عبر إصرارها على التغيير، وتحقق استقرارها عبر تضمنها للنزاعات. وهذا ليس مجرد عادة ممارسة تقليد انتخابي صاخب، بل استراتيجية تتضمنها بنية نظام الحكم ذاته. وقد وصف المؤرخ مايكل كامن النظام الذي وضعه صائغو الدستور قيد التنفيذ سنة 1789 على أنه بمثابة "نزاع ضمن إجماع". أو كما قال مؤرخ آخر، ماركوس كانليف، "ضمنوا الوثيقة بذور الخلاف عن تعمّد كإجراء وقائي ضد الفساد والدكتاتورية."

إن هذه ليست بكل تأكيد وصفة لتأمين الفعالية. وفي حين تُمجّد التكنولوجيا والإدارة الأميركية مثال الفعالية الأعلى، تقوم الدولة، كثقافة سياسية، بتغذية ارتياب عميق بالتخطيط الطويل الأجل، وبحصر السلطات، وبصنع القرارات القومية بشكل مفرط السلاسة. وتُحبط الحكومة الدستورية عن تَعَمّد أي إجراء موحد عبر فصل السلطات وعبر نظام من المراقبة والتوازن. ويمكن لهذا النظام السياسي أن يقود، وهو يقود بالفعل، إلى نزاعات وإحباطات، وأحياناً إلى مأزق في حال الافتقار إلى الحلول الوسط التي يتوصل إليها رجال الدولة أو انعدام الانسجام في الفلسفة السياسية بين الفروع التنفيذية والتشريعية والقضائية. لكنه يُحقق أيضاً الضمانة العملية ضد اغتصاب السلطة.

كما يُشجع النظام السياسي كذلك التوازن بين السلطة الفدرالية وسلطات الولايات والسلطات البلدية، مما يؤدي إلى تردد شديد على المستوى القومي في تقرير السياسة في الكثير من المجالات. وليس في الولايات المتحدة نظام تربوي واحد وليس فيها وزارة للثقافة، وليس فيها حتى الآن نظام صحي يُدار مباشرة من واشنطن. فالسياسة الخاصة بهذه القضايا، وبقضايا أخرى، تنبع في المقام الأول نتيجة للإقناع، والتنسيق، وتشكيل التحالفات، والمفاوضات بين الأحزاب المختلفة والدوائر الانتخابية (والناخبين)، ومجموعات المصالح والمناطق. ويلعب القطاع الخاص الضخم دوراً كبيراً، الأمر الذي يعكس الطاقة التي تفرزها السوق المفتوحة أمام الأفكار والبرامج والموارد: وهناك لاعب هام آخر هو الصحافة النزاعة إلى الشك والارتياب.

أميركي فذ: حرية الأديان

كان توماس جفرسون (1743–1826) مدافعاً قوياً عن الحرية السياسية والدينية وواضع الوثيقة التي يعتز بها الأميركيون أكثر من غيرها، وثيقة "إعلان الاستقلال." فأسطر الإعلان التي تقول: "نعتبر هذه الحقائق بديهية، أن جميع الناس ولدوا متساوين، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقاً معينة لا يمكن التصرف بها، وأن بين تلك الحقوق الحياة والحرية والسعي وراء السعادة" – هي بين أول ما يحفظه تلامذة المدارس الأميركيون. وقانون فرجينيا الأساسي الذي أعدّه جفرسون حول الحرية الدينية (1786) يضمن حرية العبادة الدينية ويمنع الولاية من فرض تقديم الدعم، أو صرف الأموال العامة لصالح أي ديانة مُعيّنة. كان جفرسون ثالث رئيس أميركي، من سنة 1801 إلى 1809، وقد سبق له أن خدم كوزير للخارجية وكنائب للرئيس، وكذلك كسفير للولايات المتحدة لدى فرنسا. قال جفرسون، الذي كان مهندساً معمارياً ضليعاً ولغوياً وعالم طبيعة، إنه يتمنى أن يتذكره الناس لثلاثة أمور: كواضع لإعلان الاستقلال، وكواضع لقانون فرجينيا الأساسي للحرية الدينية، وكمؤسس لجامعة فرجينيا.

المساواة أم الحرية

على الرغم من تقليد تقييد سلطات الحكومة، اقترح العديد من الأميركيين خلال القرن الماضي وجهة نظر جديدة حول دور الدولة. إذا كان مجتمع ما بحاجة فقط لأن يتحرر من نير الحكومة للتمتع بفوائد الحرية، فإن مهمة الإصلاح السياسي ستكون قد انتهت عندما يتم التخلّص من أسوأ الميول الحكومية ويتم إطلاق الطاقات الاجتماعية. لكن ذلك يفترض أن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي يسمح بالمشاركة المتساوية في كامل فوائد الحرية، أو على العكس، أن يكون بعض أعضاء المجتمع فقط مُؤهلين كمشاركين نشطين. وقد طالبت أجيال من المصلحين الأميركيين بأن يعترف مجتمعها بأولئك الذين استبعدهم من العملية ومن ثم استخدام الحكومة كضامن لحريتهم في المشاركة في الوعد الأميركي. وقد واجه المصلحون دوماً تحدياً من آخرين، يخشون تعزيز سلطات الحكومة وقدراتها إذ ينظرون إليه على أنه هجوم على الحرية. وفي نهاية الأمر، كان السؤال المطروح على الديمقراطية الأميركية سؤالاً يسهل طرحه ولكن من الصعب جداً الإجابة عليه: ما هي العلاقة بين المساواة والحرية؟

حسب مقاييس القرن الثامن عشر، كانت الدولة الجديدة قد جعلت فكرة الموافقة السياسية فكرة راديكالية من خلال منحها السلطة النهائية لأفراد الشعب، الذين، كما جاء في إعلان الاستقلال، "ولدوا متساوين" جميعا. لكن المشاركة الفعلية في المجتمع السياسي الجديد في الولايات المتحدة كانت مقيدة بطرق سيجدها الأميركيون المعاصرون غير محتملة، بل وحتى لا يمكن تصورها.

صححّت الحرب الأهلية في الستينات من القرن التاسع عشر البذاءة المتمثلة بوجود الرق في مجتمع حرّ، وجاء بعدها التعديلان الدستوريان الرابع عشر والخامس عشر اللذان وسعا نطاق الحقوق السياسية لتشمل نصف السكان الأميركيين الأفارقة. وكان على النصف النسائي أن ينتظر حتى صدور التعديل التاسع عشر سنة 1920 الذي أدخل أخيراً إلى حظيرة المجتمع السياسي أكبر مجموعة من الأميركيين الذين كانوا قد حرموا من حق الاقتراع.

وقد عُزّزت الحقوق السياسية إلى حد أبعد عن طريق التشريع، من خلال قانون الحريات المدنية لسنة 1964 وقانون حقوق الاقتراع لسنة 1965. لكن حتى بعد عدة سنوات من فرض تطبيق الحقوق السياسية الأساسية بطريقة متعمدة ومحددة الأهداف، وبعد المطالبة المُلحّة لحركة الحقوق المدنية، ظلت المسألة الأساسية حول طبيعة المساواة كشرط مُسبق للحرية دون حل في الثقافة الأميركية (في منتصف القرن الماضي). فالتمتع العادل

والمتساوي بالحقوق السياسية، عندما يتم التوصل إلى حل نهائي بشأنه، لن يضمن بذاته مشاركة الجميع الكاملة في وعد الحياة الأميركية. وأي مجادلة بأن عدم التساوي هذا في الظروف عائد إلى قصور "طبيعي متأصل" في الفئات والمجموعات السكانية الأميركية المستبعدة تُهدّد فكرة الخصوصية الفردية الأميركية نفسها. فقد كانت مجرد فكرة أنه من الممكن أن يجد أي أميركي نفسه سجين مصيره المقرر، بحيث لا يتحرك إلا في مجالات ضيقة طبقية أو عرقية أو جنسية، فكرة مقيتة. أما إذا كان الأمر، بدلاً من ذلك، مسألة حواجز اصطناعية أوجدها المجتمع، كما ناقش البعض- وعلى الأخص الحواجز العنصرية، ولكن أيضاً الحواجز الجنسية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية- فإن السؤال يصبح عندئذ، ما هي مسؤولية الدولة؟

وقد جادل المصلحون المطالبون بتدخل الدولة، أثناء إيرادهم الحجج المؤيدة لقضيتهم، ضمن إطار الديناميكية الأميركية. وكان قد تمّ إدخال الحكومة كلاعب نشط في حياة الدولة الاقتصادية خلال الحقبة التقدمية في مطلع القرن العشرين، ومن ثم أيام حكومة "البرنامج الجديد" إبان رئاسة فرانكلن ديلانو روزفلت (في أواسط القرن الماضي)، بوصفها هي نفسها قوة موازنة لقوى اجتماعية واقتصادية كانت تُهدّد عدالة المجتمع. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين، أصبح وضع السياسة الاجتماعية أكثر نشاطاً في السعي للتأثير في الشروط التي يقوم الأميركيون على أساسها بالاستعداد والتنافس والتفاعل. ومنذ وقت قريب، عكست السياسة الاجتماعية السؤال الأساسي حول دور الحكومة: ما هي أفضل طريقة، وما هو الحد الذي ينبغي الوصول إليه، في ضبط الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع يُثَمّن، لا بل وتأسس على مبدأ الحرية الفردية، ويُمجّد المبادرة الفردية، والنشاط والاستقلال الذاتي.

عندما يتحدث معظم الأميركيين عن المساواة، فإنهم يعنون بذلك المساواة في الفرص وليس في النتائج. فمنذ البداية، نادراً ما طالب الأميركيون بمجتمع تسوده المساواة من حيث الملكية أو الأوضاع، ونادراً ما أظهروا التزاماً بمثل هذا المجتمع. إن جزءاً من الحلم الأميركي هو الاعتقاد، أو "القيمة"، بأن الأفراد، إذ يختلفون في اتخاذهم المبادرات، وفي نشاطهم، ومن حيث مواهبهم، يجب أن يستمتعوا بالثمار المختلفة لجهودهم. أي أنه تم تعمد عدم وجود ضمانات لتساوي النتائج. ومعظم الأميركيين لا يرغبون في مجتمع يتساوى فيه جميع الأفراد في ظروفهم المعيشية؛ وإنما يريدون ميدان لعبٍ تتساوى فيه الفرص.

أم هل يريدون ذلك حقا؟ في الحياة الأميركية معضلة دائمة إذ تنهار التعميمات حول أهداف وقيم وظروف المجتمع لدى مواجهتها التركة العنيدة التي خلفها التمييز العنصري. لكن من الصحيح أيضاً القول إن الأميركيين قد استخدموا منذ فترة طويلة النقد الذاتي اللاذع، والخطاب الحماسي، والتصادم بين القوى الاجتماعية لدفع أنفسهم إلى الأمام. ويعود تاريخ النواح على، والتنبيه إلى، تدهور المجتمعات الفردية أو تدهور الدولة ككل، إلى عصر الطائفة البروتستانتية البيوريتانية، وقد خدم آنذاك، كما في كل عصر تال، كحافز على التغيير والعمل وكمقياس لنفاذ صبر الأميركيين ولتوقعاتهم العنيدة.

إن ما تطالب به تيارات الفعاليات النشطة الرئيسية السائدة في البلاد في أواخر القرن العشرين (وفي مطلع القرن الحادي والعشرين) هو تحقيق منطق الديمقراطية الأميركية. وليست المسألة مسألة سياسية أو اقتصادية فحسب بل إنها أيضاً مسألة ثقافية. فحتى وإن كانت القيم المُعلنة للمجتمع تحدد كون الإنسان أميركياً على أنه مشاركة في عقد اجتماعي، وليس على أساس إرث مُعيّن، استمر الافتراض بأن الأميركي الحقيقي، القح، ينتمي إلى خلفية عرقية وثقافية مُعيّنة (أنغلو سكسونية، توسعت لاحقاً لتصبح أوروبية)، وديانة معينة (بروتستانتية وسّعت، بعد سنوات من العداء لتشمل الكاثوليكية، وبعد كثير من الرفض، اليهودية)، ولأغراض الوضع القانوني السياسي والاقتصادي، من جنس معين (ذكر). وكانت فكرة البوتقة التي تنصهر فيها الأعراق والثقافات قد أكدت في مطلع القرن العشرين، على الأقل بالنسبة لبعض الفئات، على أنه ليس من الضروري أن تكون منتمية إلى تراث معين إلا أنه يتوقع منها أن تصبح أميركية ثقافياً بقدر ما ستصبح أميركية سياسياً-أي أن عليها أن تفقد، في الواقع، السمات التي تميزها عن غالبية الأميركيين.

وقد أجبرت المحاجّة المطالبة بالاعتراف بتعددية الثقافات والخلفيات بوصفها أمراً أساسياً، ليس فقط بالنسبة للواقع الأميركي بل أيضاً بالنسبة للمثل العليا الأميركية، المجتمع على أن يناقش من جديد تداعيات نظريته غير الاعتيادية القائلة بأن المجتمع القومي عملية وتفاعل. ومنذ الستينات من القرن الماضي، تنافس المدافعون عن التنوع على خلق استعارة مجازية ملائمة للمجتمع الأميركي تجمع بدلاً من أن تستبعد أو تصهر وتذيب (الفوارق). وقد دفع كل جيل من الأميركيين فكرة الخليط الأميركي للآراء، والشعوب، والمعتقدات، والثقافات، ومؤخراً، اللغات، لدرجة أن العديد من الناس بدأوا يخشون من أن مركز الثقل الذي ترتكز إليه البلاد لم يعد يتحمّل. ولكن سجل التماسك القومي حتى الآن يبعث على الأمل بالنسبة للمستقبل، لكن هذا المستقبل لا يعتبر إطلاقاً مضموناً في رأي الجميع، لوجود هواجس لدى بعض أعضاء الفئات السكانية التي تشكل الأكثرية بأن النسيج القومي آخذ في الانحلال، ولدى بعض أعضاء الفئات السكانية التي تشكل الأقلية بأنه لن يتم تقبلهم عن طيب خاطر حقاً أبداً في الخليط الأميركي.

اختبار القيم

لا يشكل النقاش الحالي حول القيم الأميركية، في نواحي أخرى كذلك، رفضاً لتلك القيم بل اختباراً لتطبيقها في ظروف أوسع. ويشكل نمو الحركة النسائية الأميركية تذكرة بأنه كان من المفترض بيولوجياً استثناء نصف الأميركيين من الانخراط السياسي ومن ثم المهني والاقتصادي في ديناميكية الحياة القومية. وفي حين أن الحواجز الجنسية لم تسقط تماماً بعد، لكنها تتعرض لهجمات متواصلة. ومن الأمور الأخرى التي علقت في الثورة المستمرة في التوقعات الأميركية، تركيبات اجتماعية أساسية مثل الأسرة، تظل عرضة للتأثر باستمرار بنظام الخيار الأخلاقي وتحقيق الذات. وكان الأميركيون قد غيروا تقاليد الزواج تغييراً جذرياً، منذ مطلع القرن التاسع عشر، للسماح بالاختيار الحر لشريك العمر. ثم توسّعت هذه النظرية لتشمل مع الوقت حق اختيار العيش معاً "دون مساعدة رجال الدين"، أو حق الزواج ومن ثم الطلاق، وأكثر وأكثر حتى المناقشة بالنسبة لتحديد ما الذي يُشكّل أسرة ضمن أو خارج الأطر الشرعية. وقد أصبحت العلاقات بين الأبناء والأهالي وبين الأجيال الفتية و الأكبر سناً تختبر بصورة متزايدة حدود السلطة والموافقة لدرجة لم يكن بالإمكان تصورّها في العهود السابقة.

وفي حين أن هذه توجهات أميركية حالية، لكنها أيضاً، إلى حد أقل نوعاً ما، توجهات جميع الثقافات الديموقراطية الصناعية. وعلى الأميركيين ان يبدأوا في التساؤل إلى أي حد أصبحت الثقافة التي كانت تحددهم مرة كفريدين، على الأقل في بعض أوجهها، ثقافة الحداثة العالمية. لقد شكلت مشاهدة الترحيب (بعدد من الدول الآسيوية) على أنها دول القرن الواحد والعشرين، بسبب ما أحرزته من تقدم تكنولوجي وصناعي، صدمة للأميركيين؛ كما شكلت رؤية الأوروبيين الغربيين وقد أصبحوا يعرفون بأنهم اتحاد كبير للدول وكومنولث ديناميكي صدمة هي أيضاً؛ و كذلك مشاهدة ديمقراطيات أوروبا الشرقية والوسطى الحديثة الانبثاق، وإن يكن بعذاب، تُقرن بطموحات ناخبين متحمسين.

لكن مع كل هذا، يستطيع الأميركيون رؤية الأفضلية التي يتمتعون بها بفضل تاريخهم الطويل من الانفتاح السياسي والتغيير، والتسامح إزاء النزاعات، وطاقة المبادرة في الأعمال، والمزيج الثقافي. ويمكن لتاريخهم المرن أن يكون بمثابة وصفة للاستقرار خلال الصدمات الراهنة الناجمة عن الحداثة العالمية، مؤكداً التقاليد القومية لا مقوضاً لها.

مارك باكتر هو مدير الناشيونال بورترت غاليري التابعة لمؤسسة سميثسونيان بواشنطن العاصمة. وقد شغل سابقاً منصب نائب مساعد مدير السميثسونيان للشؤون الخارجية. وقد ألف باكتبر وحرر عدة كتب وشارك في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية حول المواضيع الثقافية والتاريخية الأميركية. وقد اقتطف هذا المقال و أوجز وأعيد نشره من كتاب "هويات في أميركا الشمالية، البحث عن مجتمع"، حرره روبرت لي إيرل وجون د. ويرث. حقوق الطبع عام 1995 لمجلس أمناء جامعة ليلاند ستانفورد جونيور. جميع الحقوق محفوظة. استخدم المقال بإذن من دار نشر جامعة ستانفورد. http://www.sup.org/.

ملحوظة: إن الآراء الواردة في هذا المقال لا تمثل بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

وجه أميركا المُتغير

أودري سِنغر

فوق، مهاجرون يصلون إلى إليس آيلاند (جزيرة اليس) في نيويورك حول بداية القرن العشرين. وصل حوالى 16 مليون شخص عبر اليس آيلاند بين 1892 و1924. (آسوشييتد برس)

تحت، كان فرانسيسكو سارولا، إلى اليسار، وهو من سلفادور ويبلغ السادسة والثمانين من العمر، أكبر المهاجرين الـ433 سناً الذين أقسموا اليمين كمواطنين أميركيين يوم الرابع من تموز (يوليو) 2003، في احتفال جرى في سياتل بولاية واشنطن. (آسوشييتد برس/جيم بريانت)

تنظر الكاتبة في التغيّرات المعاصرة في التركيبة العرقية والإثنية لأميركا وتشاركنا في بعض أفكارها حول التّنوّع المستقبلي للبلاد. سنة 1970، كان من الممكن تحديد هوية الولايات المتحدة، من الناحية العرقية، بكلمتي أسود وأبيض. لكن خلال العقود الثلاثة الأخيرة، أغنى المهاجرون من آسيا وأميركا اللاتينية، وأفريقيا، والبحر الكاريبي التنوع في البلاد. وكان من نتيجة ذلك أن المواطنين الأميركيين أصبحوا يعرّفون عن أنفسهم أكثر فأكثر بتعابير متعددة الأعراق. تواصل الحكومة جمع المعطيات على أساس الصفات العرقية والإثنية ضمن نطاق تعهدها تعزيز القوانين التي تحظر التمييز، وتضمن المساواة في المعاملة، وتوفير الفرص المتساوية. وتختتم الكاتبة قائلة: «أحد الأسباب التي تدعو إلى التفاؤل هو تاريخ أميركا الماضي الذي أدمج المجموعات المختلفة في مجتمع واحد ودولة واحدة.»

...ما من حاجة للتشجيع: ففي حين أن سياسة أو فوائد (الهجرة) في مجموعات متجانسة (وأعني بذلك توطين المهاجرين معاً في كيانات متجانسة) موضع تساؤلات كثيرة؛ لأنهم يحافظون بذلك على لغتهم وعاداتهم ومبادئهم (الحسنة أو السيئة) التي يأتون بها، فإنهم عند اختلاطهم بشعبنا، سوف يندمجون هم، أو المتحدرون منهم، في عاداتنا وقوانيننا: وباختصار، سرعان ما يصبحون شعباً واحداً.
– جورج واشنطن، في رسالة إلى جون آدمز، 15 تشرين الثاني / نوفمبر 1794.

منذ تأسيس الولايات المتحدة قبل أكثر من 225 سنة، ظلّ السؤال عمّن ينتمي إلى هذا البلد في صلب قصتنا القومية. والنقاشات المعاصرة حول مستويات الهجرة واندماج المهاجرين تردد نفس المشاعر التي أعرب عنها جورج واشنطن في مرحلة سابقة. غير أن قضايا اليوم حول من ينتمي، وكيف يجب أن يتكيّف المهاجرون، غيّرتها مرات عديدة موجات الهجرات المتتالية التي حتمت على الصورة القومية الذاتية التكيف معها، وإعادة وضع معايير القياس للقادمين الجدد من أصول مختلفة. وبقيامها بذلك، نجحت أميركا بشكل ما في الجمع بين شعوب مُتفاوتة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، في نفس الوقت الذي سمحت فيه للأفراد بالتمسّك بالهوية التي يرغبون فيها. ويبدو أن الهجرة تُعزز كما أنها تتحدّى، في الوعي القومي، الفكرة القائلة بأن أميركا مكاناً يمكن أن ينتمي إليه أي إنسان.

غير أن سرعة وتنوع الهجرة المعاصرة أخذا يغيّران بسرعة الخليط العرقي والإثني الأميركي. وأصبحت الهجرة تثير الهواجس مرة أخرى بشأن تجزؤ أميركا. فهل يمكن أن تؤدي

الهجمات الإرهابية في أيلول/سبتمبر 2001، وعاقبة الحرب في العراق، والهواجس بالنسبة للاقتصاد، إلى تقلص تدريجي في تَقبّل الجمهور للمهاجرين؟ أم هل ستواصل أميركا رؤية فرص في الموجات الجديدة من المهاجرين المتنوعين وتتغلب على التحديات؟

أساس أن المهاجرين سوف يشقون طريقهم بمساعدة العائلة أو الأصدقاء. وفي حال احتاج المهاجرون إلى مزيد من المساعدة، فانهم سوف يتوجهون نحو المنظمات الاجتماعية المحلية والمنظمات الدينية. غير أن التكيّف على الجبهة الاجتماعية والثقافية، مع أميركا المتنوعة المتصفة بالتعددية والمتطورة باستمرار، يشكل تحديات بالنسبة للقادمين الجدد كما للسكان المقيمين كذلك.

تأسست جوائز التراث العائلي لإليس آيلاند (جزيرة اليس) سنة 2001 لتكريم المهاجرين، أو المتحدّرين منهم الذين قدموا مساهمات بارزة للولايات المتحدة في مختلف الميادين. يظهر في هذه الصورة الحاصلون على جوائز سنة 2001 أو أقاربهم.

ومما يزيد من تعقيد العلاقات بين المجموعات، كون الهجرة المعاصرة تقوم فوق طبقات تاريخية من تأهيل الولايات المتحدة بالسكان. وعلى الأخص، يُشكّل التراث الذي خلفه امتلاك الرقيق، وغزو الأراضي الجديدة، عنصرين هامين من عناصر التنوع المعاصر في أميركا. كما يشكل التمييز، والعنصرية، وعدم المساواة الناتجة عنهما حقائق متعبة تُظهر كيف يمكن لمثل هذه التطورات التاريخية أن تسير في الاتجاه الخاطئ.

ويشكل المهاجرون اليوم اختباراً جديداً لمرونة النسيج الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في الولايات المتحدة. وفي حين كانت الحكومات الأميركية تحدد دوماً عدد الناس المقبولين في البلاد، فإنها لا تكاد تفعل أي شيء بصورة مباشرة لمساعدة المهاجرين لدى وصولهم. فالحكومة الفدرالية لا تقدم، مثلاً، دورات لتعليم اللغة أو برامج للتدريب على الوظائف إلى أكثرية المهاجرين، على

كيف غيّرت الهجرة خلال القرن العشرين التركيبة العرقية والإثنية للولايات المتحدة؟ يبحث هذا المقال التغيرات المعاصرة في تلك التركيبة ثم يلقي نظرة على مستقبل التنوع أو التعددية في أميركا.

البلدان مصدر الهجرة

لا مفّر من أن أميركا القرن الواحد والعشرين سوف تبدو ديموغرافياً مختلفة عن أميركا القرن العشرين. فإحصاء سنة 2000 يدل منذ الآن على أن أميركا أصبحت أكثر تنوعاً، إثنياً وعرقياً وثقافياً ولغوياً، من أي وقت سابق. قبل 30 عاماً فقط، كان من السهل تصنيف الأميركيين إما كبيض أو كسود. أما اليوم، فيغني تعددية الصورة القومية بشكل متزايد الآسيويون، والقادمون من أميركا اللاتينية، ومتعدّدو الأعراق. وتساهم المستويات العالية للهجرة، والزواج المختلط بين المجموعات والنسّل الناتج عنه، وكذلك التغيير الهام في الأساليب التي تستخدمها الحكومة الأميركية لجمع المعلومات عن المقيمين في البلاد، تساهم جميعها في خلق التغيرات المتزايدة التي شاهدناها خلال العقود القليلة الماضية.

الرسم التوضيحي1 يُظهر تاريخ الهجرة إلى الولايات المتحدة في القرن العشرين. وقد انتهى القرن بوجود أكثر من ثلاثة أضعاف العشرة ملايين وثلاثمئة ألف (10,300,000) مهاجر الذين كانوا هناك في بدايته. غير أنه من المهم أن نتذكر أنه كانت هناك بين سكان الولايات المتحدة، سنة 1900، نسبة أعلى من السكان المولودين في الخارج (حوالى 14 بالمئة) مما سُجّل سنة 2000 (11,1 بالمئة).

وكما هو ظاهر في الرسم التوضيحي 1، ازداد عدد السكان المهاجرين بصورة مُطّردة خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، ثم بدأ ينحدر في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين خلال الركود الاقتصادي العالمي. كذلك حافظت السياسات المُقيّدة للهجرة خلال الحرب العالمية الثانية على المستوى المنخفض للهجرة الشرعية خلال العقود الأربعة التالية. وتنعكس المستويات الأدنى للهجرة، يُضاف إليها ازدياد معدلات الخصوبة لدى المقيمين في الولايات المتحدة وارتفاع نسبة الولادات، في النسبة المُتدنية للمهاجرين سنة 1950، و1960، و 1970. غير أن قانون الهجرة والجنسية لسنة 1965 ألغى الحصص النسبية (الكوتا) القومية السابقة التي كانت مفروضة حسب الأصل، مما فتح الباب أمام الهجرة من مناطق غير أوروبا. وخلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، ازدهرت الهجرة، فارتفع عدد سكان الولايات المتحدة المولودين في الخارج خلال تلك الفترة إلى أكثر من ضعفي ما كان عليه سابقا، من 14,1 مليون إلى 31,1 مليون.

ربما كان تغير البلدان التي وفد منها المهاجرون بنفس أهمية الاتجاهات في مستويات الهجرة. فخلال العقدين الأولين من القرن العشرين، كان 85 بالمئة من الـ 14,5 مليون مهاجر الذين قُبلوا في الولايات المتحدة من أصل أوروبي، وإلى حد كبير من أوروبا الجنوبية والشرقية. ويختلف هذا تماماً عن الـ 14,9 مليون مهاجر الذين قُبلوا خلال العقدين الأخيرين، حيث جاءت نفس النسبة تقريباً من بلدان في آسيا، وأميركا اللاتينية، والبحر الكاريبي، وأفريقيا.

ولا يختلف النزاع الاجتماعي والمنافسة اللذان نراهما اليوم، بسبب تحول أصول المهاجرين إلى بلدان ذات خلفيات إثنية ولغوية ودينية وسياسية وتقاليد مختلفة عن الأكثرية، عن الأوضاع التي برزت في العقود المبكرة للقرن العشرين. فخلال تلك الحقبة، وبسبب ما اعتبر تباين يفرق بينهم وبين بقية السكان، كان يُنظر إلى الأوروبيين الجنوبيين والشرقيين بشيء من الحذر يماثل ما يحدث بالنسبة لبعض المهاجرين اليوم.

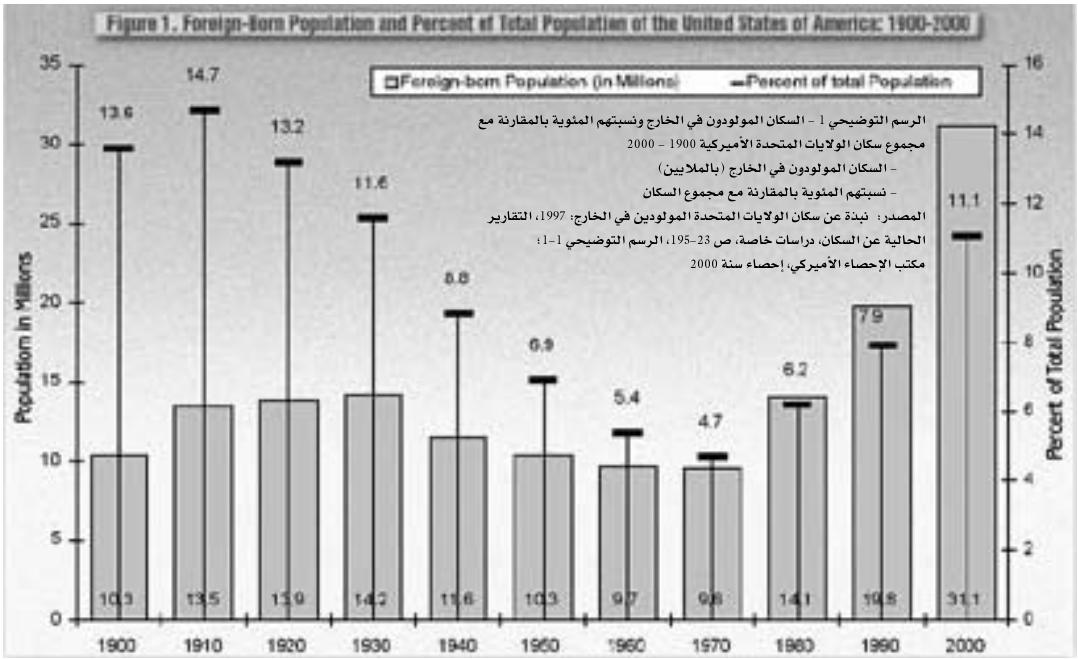

الرسم التوضيحي 1 - السكان المولودون في الخارج ونسبتهم المئوية بالمقارنة مع مجموع سكان الولايات المتحدة الأميركية 1900 - 2000
- السكان المولودون في الخارج (بالملايين)
- نسبتهم المئوية بالمقارنة مع مجموع السكان
المصدر: نبذة عن سكان الولايات المتحدة المولودين في الخارج: 1997، التقارير الحالية عن السكان، دراسات خاصة، ص 23-195، الرسم التوضيحي 1-1؛
مكتب الإحصاء الأميركي، إحصاء سنة 2000

قياس العرق والإثنية

من الصعب التقاط صورة كاملة للفسيفساء العرقية والإثنية الأميركية. ويكمن أحد أسباب ذلك في أن كل إحصاء أميركي جرى خلال المئتي سنة الماضية تقريباً جمع المعطيات العرقية بطريقة تختلف عن سابقاتها. فالفئات قد تغيّرت مع الزمن، عاكسة إلى حد كبير التغيرات في السلطة السياسية والتمثيل السياسي. وزاد في تعقيد الوضع أسلوب تنظيم استمارة إحصاء السكان سنة 2000.

أولاً، سمح إحصاء سنة 2000، لأول مرة في التاريخ، للأفراد بتعريف أنفسهم حسب انتمائهم إلى أكثر من عرق (راجع الرسم التوضيحي 2). كانت مسألة العرق مُكوّنة من ست فئات كبرى: أبيض أو قوقازي؛ أسود، أميركي أفريقي أو زنجي؛ أميركي هندي أو من سكان ألاسكا الأصليين: آسيوي؛ من سكان هاواي الأصليين

أو من سكان جزر المحيط الهادئ الأخرى؛ و«عرق آخر». فالسماح للأفراد بوضع إشارة على أكثر من فئة وسّع العدد الضئيل من الفئات إلى 63 مجموعة مختلفة ممكنة.

ثانياً، طرح مكتب إحصاء السكان الأميركي، أسئلة منفصلة حول العرق والإثنية الإسبانية / اللاتينية (Hispanic/ Latino) أي الناطقين بالإسبانية أو الذين من دول أميركا اللاتينية. لذلك، وعلاوة على وضع إشارة عما إذا كانوا يعتبرون أنفسهم من الدول الناطقة بالإسبانية، اختار الأفراد فئة أو فئات عرقية للإجابة عن سؤال منفصل. وقد ظهرت كلمة «هسبانك» في الولايات المتحدة في السبعينات من القرن الماضي كصفة إدارية فريدة للتعاطي مع الناطقين بالإسبانية المتحدّرين من أميركا اللاتينية الذين يعيشون في الولايات المتحدة. وقد تبنّى مكتب الإحصاء هذه الصفة المميزة في وقت مناسب لاستخدامها في إحصاء سنة 1980. لكن قبل هذا الإحصاء وبعده، استخدمت صفات أخرى، بينها المتحدرون من أميركا اللاتينية (لاتينو)، التي يستخدمها مكتب الإحصاء الآن بالتبادل والترادف مع (هسبانك). وتؤدي إضافة متغير هسبانك/لاتينو إلى التصنيفات العرقية إلى إمكانية ظهور 126 تركيبة مختلفة محتملة.

يظهر الجدول 1، مع الأخذ بعين الاعتبار هذه القضايا المنهجية، كيف تغيّرت التركيبات الإثنية والعرقية الأميركية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين عن طريق مقارنة الأبيض، والأسود، والفئة العرقية الثالثة التي تجمع بين «جميع الفئات الأخرى» في مجموعة واحدة. (بالنسبة للسنوات 1970 إلى 1990، تشير عبارة «الأخرى» إلى الأشخاص الذين يُعرفّون عن أنفسهم بصفة أخرى غير الأبيض أو الأسود، أي آسيوي، هندي أميركي أو من «الأعراق الأخرى». بالنسبة لسنة 2000، شملت تلك الفئة كل إنسان وضع إشارة على أكثر من عرق واحد كذلك.) كما تقتفي لوحة منفصلة نسبة نموّ السكان المهاجرين من الدول الناطقة بالإسبانية.

الرسم التوضيحي 2: أسئلة إحصاء سنة 2000 المتعلقة بالإثنية الناطقة بالإسبانية/الأميركية – اللاتينية والعرق

- **ملاحظة: الرجاء الإجابة على السؤالين 7 و 8**

هل الشخص 1 إسباني/ ناطق بالإسبانية/ من أميركا اللاتينية؟ أشر لـ«لا» إن كنت غير إسباني/ ناطق بالإسبانية/ من أميركا اللاتينية

- لا، غير إسباني/ ناطق بالإسبانية/ من أميركا اللاتينية - نعم، من بورتوريكو
- نعم، مكسيكي، أميركي مكسيكي، تشيكانو، -نعم، كوبي
- نعم، إسباني/ ناطق بالإسبانية/ من أميركا اللاتينية/ من مجموعة أخرى - أكتب المجموعة

ما هو العرق رقم 1 للشخص؟ أشر إلى عرق أو أكثر للدلالة على ما يعتبر هذا الشخص عرقه.
- أبيض
- أسود، أميركي أفريقي، أو زنجي
- هندي أميركي أو من سكان ألاسكا الأصليين - أكتب اسم القبيلة المسجل بها أو القبيلة الرئيسية.

- هندي آسيوي - ياباني - من سكان هاواي الأصليين
- صيني - كوري - من جزيرة غوام أو شامورو
- فليبيني - فيتنامي- من جزيرة ساموا
- آسيوي - أكتب العرق - من سكان جزر الباسيفيك الأخرى- أكتب العرق
- من عرق آخر - اكتب العرق

المصدر: مكتب إحصاء السكان الأميركي، 2000

Figure 2. Census 2000 Questions Regarding Hispanic/Latino Ethnicity and Race

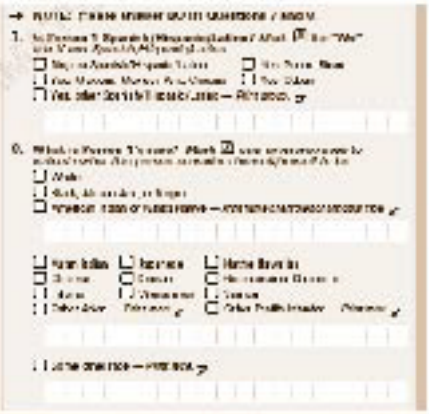

حيث أعلن، أمام حشد من 250,000 شخص، عن أمله بأنه «يوماً ما... سوف يجلس أبناء العبيد السابقين وأبناء من كانوا يملكون العبيد معاً حول طاولة الأخوة... وسيعيش أطفالي الأربعة الصغار في أحد الأيام في دولة لا يتم تقديرهم فيها بناء على لون بشرتهم بل حسب ما تمثله أخلاقهم». وقد اغتال كنغ سنة 1968 قاتل أُلقي القبض عليه لاحقاً وحكم عليه بالسجن المؤبد.

الجدول 1: سكان أميركا حسب العرق والعمر 1970–2000

Table 1. U.S. Population by Race and Age, 1970 - 2000 الفرق بين

RACE	1970	1980	1990	2000	Difference between 1970 - 2000
Total					
White	87.4	83.2	80.3	75.1	-12.3
Black	11.1	11.7	12.0	12.3	1.2
Other[a]	1.4	5.2	7.6	12.5	11.1
Children[b]					
White	84.8	78.6	75.1	68.6	-16.2
Black	13.7	14.7	15.0	15.1	1.4
Other[a]	1.5	6.7	9.9	16.3	14.8
Adults[c]					
White	88.9	84.9	82.2	77.4	-11.5
Black	9.8	10.5	11.0	11.4	1.6
Other[a]	1.4	4.5	6.8	11.2	9.9
Hispanic Ethnicity[d]	...	6.4	9.0	12.5	6.1[e]

العرق
المجموع
أبيض
أسود
آخرون (أ)
أطفال (ب)
أبيض
أسود
آخرون (أ)
بالغون (ب)
أبيض
أسود
آخرون (أ)
إثنية هسبانك (د)

المصدر: إحصاء السكان سنة 1980، الصفات المميزة للسكان، المُجلّد 1، الفصل ب، الجزء الأول؛
إحصاء السكان والإسكان، 1990: شريط موجز، الملف 3 على CD-ROM؛ إحصاء سنة 2000، الملف 1.

أميركي فذ: الحقوق المتساوية

قاد القس مارتن لوثر كنغ جونيور (1929–1968)، الذي استوحى من المهاتما غاندي الهندي اللجوء إلى العصيان المدني غير العنيف، حركة الحقوق المدنية الأميركية للتخلص من الحواجز القانونية والمؤسساتية المفروضة ضد الأميركيين الأفارقة والأقليات الأخرى. وقالت مؤسسة نوبل، التي منحت كنغ جائزة نول للسلام في عام 1964، أنه قطع بين سنة 1957 و 1968، أكثر من ستة ملايين ميل، وألقى أكثر من 2500 خطاب، وقاد العديد من مسيرات الاحتجاج، واعتقل أكثر من 20 مرة. وقد جاءت الجائزة بعد مرور سنة على المسيرة التي قادها كنغ إلى واشنطن العاصمة

سنة 1970، كان 99 بالمئة تقريباً من الأميركيين يُصّنفون إما كبيض أو سود. وبعدها بثلاثين سنة، انخفضت هذه النسبة المئوية إلى حوالي 87 بالمئة مع هبوط نسبة السكان البيض من 87,4 بالمئة سنة 1970 إلى 75,1 بالمئة سنة 2000، وارتفاع نسبة السكان السود من 11,1 بالمئة إلى 12,3 في نفس الفترة الزمنية. وقد عوض الانخفاض في عدد السكان البيض ارتفاع في عدد السكان «الآخرين» الذين ارتفعت نسبتهم من 1,4 بالمئة سنة 1970 إلى 12,5 بالمئة سنة 2000.

والرواية التي تتضمن مغزى أهم، هي الزيادة البالغة عشرة أضعاف للأطفال المُصنفين لا كبيض ولا سود سنة 2000، مما ينبئ بمستقبل أكثر تنوعاً. وكان احتمال تصنيف الأطفال لا كبيض أو سود يزيد مرة ونصف المرة عن احتمال تصنيف البالغين كذلك في إحصاء سنة 2000، الأمر الذي يعكس ازدياد الأطفال الناجمين عن زواج مختلط بين الأعراق ومعدل الولادة المرتفع نسبياً بين بعض المجموعات المهاجرة. كما كان احتمال تصنيف الأطفال كمتعددي الأعراق (لوجود أكثر من إشارة حول تصنيف العرق، وضعها على الأرجح ذووهم) في إحصاء 2000 أكثر بكثير من احتمال تصنيف البالغين كذلك، حوالي 4 بالمئة بالمقارنة مع 2 بالمئة للبالغين. وعندما يصبح هؤلاء الأطفال

بالغين، ستشهد الولايات المتحدة على الأرجح زيادة موازية في الهوية المتعددة الأعراق نتيجة لازدياد تقبل المجتمع لتلك الهوية، ومع إنجاب هذه الجموع من الأطفال المتعددي الأعراق بدورهم أطفالاً، قد يختارون هم أيضاً التعريف عن أنفسهم بأنهم متعددو الأعراق.

سنة 2003، احتل مكتب الإحصاء عناوين الصحف عندما أعلن أن المنحدرين من الدول الناطقة باللغة الإسبانية أصبحوا يفوقون السود عدداً في الولايات المتحدة. ونتيجة للهجرة المتزايدة ومعدل الولادات الذي يزيد عن معدل الولادات بين السود، سيواصل اتجاه تعداد السكان من الدول الناطقة بالإسبانية تقدمه على تعداد الأميركيين الأفارقة. وقد ظهر السكان من الدول الناطقة بالإسبانية (هسبانك) في البيانات ابتداء من سنة 1980 حين بلغت نسبتهم 6,4 بالمئة (لم يجر قبل ذلك التاريخ جمع البيانات بصورة منفصلة بالنسبة لتلك المجموعة)، وارتفعت تلك النسبة إلى 12,5 بالمئة من مجموع السكان سنة 2000 (الجدول 1).

علاوة على ذلك، يظهر «التقسيم التنوعي» بجلاء في ولايات أميركية معينة تشهد أعداداً تتزايد بسرعة من السكان المهاجرين. وتمثل الأقليات الآن أكثر من نصف السكان تحت سن الثامنة عشرة في كل من ولايات أريزونا وكاليفورنيا وهاواي ونيو مكسيكو وتكساس، كما وفي بعض مناطق المدن الكبرى التي شهدت تدفقاً كبيراً من المهاجرين. ومما لا يدعو إلى الاستغراب أن المدن التي جذبت أعداداً كبيرة من المهاجرين قد تغيرت خلال القرن، من مدن الشمال الشرقي والوسط الغربي مثل فيلادلفيا وبافالو وسانت لويس، إلى المدن الكبرى الجنوبية والغربية مثل لوس انجلس وميامي وهيوستون. كما ان إقامة المهاجرين في المناطق الشعبية الجديدة في المدن الكبرى مؤخراً تمت بشكل متزايد في الضواحي خارج المدن. وفي بعض الأماكن، مثل أطلنطا، بولاية جورجيا، وواشنطن العاصمة، كان النمو الحديث السريع بين السكان المهاجرين جميعه تقريباً خارج المدن نفسها. ويظهر إحصاء سنة 2000 أنه خلال العقد الأخير، ازداد التنوع العرقي والإثني بشكل كبير في الضواحي بسبب ازدياد عدد السكان المولودين في الولايات المتحدة وفي الخارج؛ وقد ارتفعت نسبة السكان غير البيض من 19 بالمئة إلى 27 بالمئة من مجموع السكان في الضواحي.

هوية من العرقية ؟

يأتي المهاجرون إلى الولايات المتحدة بهوية قد لا تكون لها أي علاقة بالمقاييس الفدرالية الخاصة بالتصنيف العرقي. وبعض الفئات العرقية في الإحصاء واسعة إلى حد كبير. فتصنيف«آسيوي»، مثلاً، يشير إلى من لهم جذور في الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا وشبه القارة الهندية. وهي تشمل الناس الذين صرّحوا في إحصاء سنة 2000 عن عرقهم أو أعراقهم كهنود آسيويين وصينيين وفيليبنيين وكوريين ويابانيين وفيتناميين و «آسيويين آخرين» أو الذين كتبوا في التبويبات أنهم بورميون، همونغ، باكستانيون أو تايلانديون. فعلى غرار المهاجرين من أميركا اللاتينية (لاتينو)، يشعر معظم الآسيويين بارتباط مع أبناء بلدهم يفوق ارتباطهم بالتصنيف الجغرافي العريض «آسيوي» الذي تستخدمه الحكومة الفدرالية.

من يمكنه أن يصبح مواطناً أميركياً

الأشخاص الذين يولدون في الولايات المتحدة، مع بعض الاستثناءات القليلة، يصبحون مواطنين بغض النظر عن خلفياتهم الإثنية أو عن جنسية وأصول ذويهم القومية. وتختلف الولايات المتحدة في هذا السياق عن العديد من البلدان الأخرى التي لا تمنح المواطنية بصورة آلية للأشخاص فقط على أساس ولادتهم في منطقة ضمن سلطتها الرسمية.

وقد كان القبول المفتوح الصفة المميزة لعملية الحصول على الجنسية الأميركية منذ تأسست الدولة، وذلك على الرغم من تغيير القوانين والأنظمة على مرّ السنين. وقبل سنة 1866، لم يكن وضع مواطنية الأشخاص المولودين في الولايات المتحدة القانوني محدداً في الدستور أو في أي قانون أساسي فدرالي. ولكن، كان الأشخاص المولودون في الولايات المتحدة يحصلون عادة على الجنسية الأميركية عند ولادتهم بموجب قاعدة القانون غير المكتوب «جوس سولي» أو قانون مسقط الرأس (الذي يعني قانون الأرض). وقد أعطى قانون الحقوق المدنية الذي صدر في 9 نيسان / إبريل 1866 وأقّر كالتعديل الرابع عشر للدستور بعد ذلك بعامين، هذا الترتيب صفة رسمية معلناً ان «جميع الأشخاص المولودين أو المُجنّسين في الولايات المتحدة والخاضعين بالتالي لسلطاتها القضائية، هم مواطنو الولايات المتحدة».

ولا يزال «قانون مسقط الرأس» هذا ساري المفعول اليوم. لكن بعض الأفراد المولودين في الولايات المتحدة مثل أبناء رؤساء الدول أو أبناء الدبلوماسيين الأجانب لا يحصلون على الجنسية الأميركية بموجب «قانون مسقط الرأس»، كما أن بعض المولودين خارج الولايات المتحدة يولدون كمواطنين أميركيين بسبب ذويهم حسب مبدأ «قانون الدم».وينص مصدر هذا الحق في «قانون الدم» على أن جنسية الطفل تعود إلى نفس بلد جنسية والديه أو والديها.

علاوة على الحصول على الجنسية الأميركية عبر الولادة، يمكن الحصول على الجنسية أيضاً طريق عملية التجنس. ويتطلب التجنس عادة أن يكون الشخص متمتعاً بوضع «مقيم شرعي دائم» وأن يقيم لعدد محدد من السنين في الولايات المتحدة. والقوانين والأنظمة المتعلقة بسبل الحصول على الجنسية الأميركية معقدة، ويجب استشارة أقرب سفارة أو قنصلية أميركية في حال كانت هناك حاجة إلى معلومات إضافية. والكونغرس الأميركي مُخوّل سلطة إصدار القوانين المتعلقة بالمواطنية الأميركية.

إزاء صرامة فئات التصنيف العرقية وميوعة التعريف الذاتي العرقي والإثني، لا غرابة إذا كان بعض الناس يقاومون تصنيفات الإحصاء. فأثناء إكمالهم إحصاء 1990، عصى نصف مليون شخص تعليمات تطالبهم بوضع إشارة على عرق واحد، ووضعوا بدلاً من ذلك إشارة على عرقين أو أكثر. وقد ساهم ذلك في جعل مكتب إحصاء السكان يسمح بإعطاء أجوبة متعددة حول العرق سنة 2000. والواقع البسيط هو أن العديد من الناس، وعلى الأخص الذين ينتقلون إلى الولايات المتحدة كمهاجرين بالغين والأطفال الذين يتم إنجابهم نتيجة زواج مختلط، لا يعتبرون أنه يمكن تصنيفهم ضمن فئة واحدة فقط من حفنة ضئيلة من الفئات العرقية.

لماذا تواصل الحكومة الفيدرالية جمع مثل هذه المعطيات ما دام هناك اتفاق واسع النطاق على أنه ينبغي تحديد العرق والإثنية اجتماعياً ومن قبل الأفراد أنفسهم، وهو ما يحصل بالفعل؟ إنها تفعل ذلك، إلى حد كبير، لأن العرق لا يزال يلعب دوراً في تساوي الفرص المتوفرة في مجالات كثيرة في المجتمع الأميركي. وهناك فوارق كبيرة في التوجهات الاقتصادية والتوظيفية والاجتماعية والصحية على أساس العرق، واهتمام الحكومة بجمع المعطيات حول العرق يساعد في توثيق تلك التوجهات. والقوانين والسياسات والبرامج الهادفة إلى الحؤول دون ممارسة التمييز العنصري، مثل قانون الحقوق المدنية وقوانين جرائم الكراهية، تحتاج بالضرورة إلى تلك المعطيات.

مستقبل التنوع

لو اختارت الولايات المتحدة وضع حد للهجرة بجميع أشكالها اليوم، لاستمر التنوع (أو التعددية) العرقي والإثني في الازدياد لأجيال قادمة. لماذا ؟ بسبب اتجاهين رئيسيين: العقود العديدة من الهجرة الكثيفة، واستعداد الأميركيين للتغاضي عن العرق أو الإثنية وعدم أخذهما بعين الاعتبار لدى اختيارهم أزواجهم. وفي حين يحظى السبب الأول بكثير من الاهتمام، قلما يثير الثاني اهتمام الشعب، حتى رغم تضاعف عدد الزيجات المختلطة بشكل كبير في الأعوام الثلاثين الأخيرة.

إن الانقسام الثنائي بين أميركا سوداء وأميركا بيضاء قد تغيّر بكل تأكيد، لكن كيف ستندمج المجموعات الجديدة في المجتمع الأميركي ؟ كيف سيعيد القادمون من المكسيك وجمهورية الدومينكان وفيتنام والهند تحديد الطبقات العرقية والإثنية التي تطوّرت حول خطوط سوداء وبيضاء ؟ هل ستصبح الانقسامات أعمق، أم هل سيصنع الجيل الحالي من الأطفال الذين هم جميعاً تقريباً أكثر تنوعاً من ذويهم رابطة مُتناسقة مع تقدمهم في السن وبلوغهم سن الرشد بدورهم.

إن أحد الأسباب القوية للإحساس بالتفاؤل هو سجل أميركا الحافل بدمج المجموعات المتنوعة في مجتمع واحد ودولة واحدة. وقد نجح المهاجرون، بغض النظر عن أصولهم، إلى حد كبير في تسلّق السلم الاجتماعي-الاقتصادي. وهذا اتجاه يجب أن يستمر.

أودري سنغر زميلة في شؤون الهجرة في برنامج السياسة الحضرية في مؤسسة بروكنغز، وكانت سابقاً مشاركة في صندوق كارنغي للسلام الدولي وعضو في الهيئة التدريسية في كلية دائرة الديموغرافيا في جامعة جورجتاون. كتبت سنغر الكثير حول اتجاهات الهجرة في الولايات المتحدة، وحول الهجرة غير الموثّقة، وعن التركيبة العرقية والإثنية المتغيرة في الولايات المتحدة، بما في ذلك «بروز بوابات دخول جديدة للمهاجرين» الذي صدر حديثاً.

ملحوظة: إن الآراء الواردة في هذا المقال لا تمثل بالضرورة آراء أو سياسات الولايات المتحدة.

نبذات عن سير

قدمنا لمح عن سيرة ثلاثة عشر فرداً مختلفين تعطي حياتهم وخلفياتهم وأشغالهم فكرة كبيرة، وإن كانت ليست صورة كاملة بأي حال من الأحوال، عن الحياة في الولايات المتحدة اليوم. وبين الأشخاص الذين نعرف القراء عليهم أميركيون عاديون وكذلك عدد قليل من الأشخاص الذين ربما سمعتم عنهم في السابق.

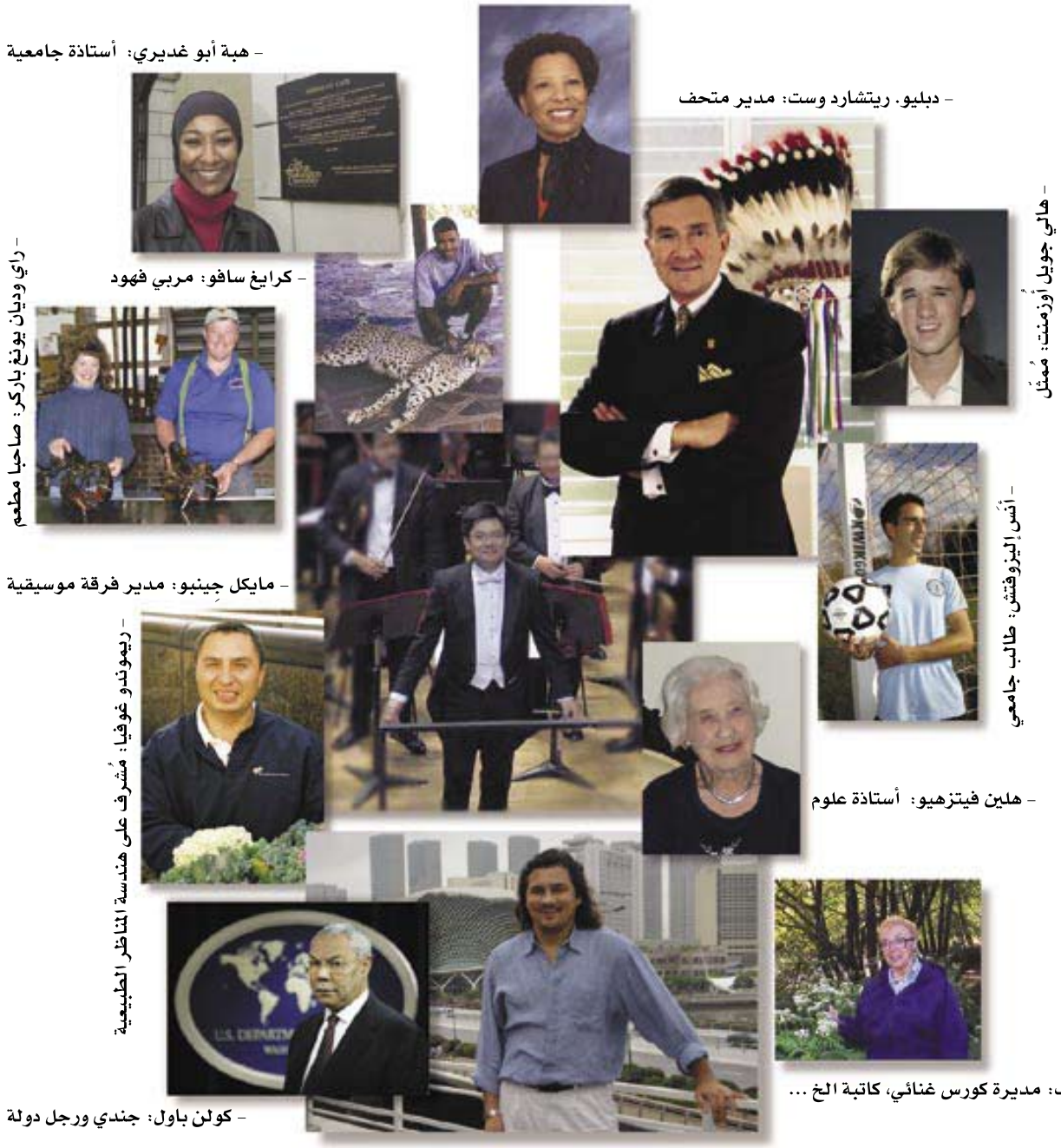

- رينيا سلايتر: قسيسة
- هبة أبو غديري: أستاذة جامعية
- دبليو. ريتشارد وست: مدير متحف
- هالي جويل أوزمنت: مُمثّل
- راي وديان يونغ باركر: صاحبا مطعم
- كرايغ سافو: مربي فهود
- أنس إليزوفتش: طالب جامعي
- مايكل جِينبو: مدير فرقة موسيقية
- ريموندو غوفيا: مُشرف على هندسة المناظر الطبيعية
- هلين فيتزهيو: أستاذة علوم
- آن كورف: مديرة كورس غنائي، كاتبة الخ ...
- كولن باول: جندي ورجل دولة
- ستيفن جونسون: رجل أعمال دولي

نبذات عن سِير

هبة أبو غديري

اغتنام الفرص

تُجسد هبة أبو غديري، المواطنة الأميركية المُجنّسة، من كثير من النواحي، ما هو حديث وما هو تقليدي. فمستواها العلمي الرفيع (تحمل شهادة دكتوراه في التاريخ من جامعة جورجتاون) وحياتها المهنية (هي أستاذة تاريخ الشرق الأوسط في جامعة جورجتاون بواشنطن) يدلان على أنها امرأة عصرية فعلاً، بينما يبقيها ورعها الإسلامي التقي واحترامها للعائلة مترسخة في القيم التقليدية.

جاءت هبة، المولودة في السودان، إلى الولايات المتحدة مع والديها عندما كانت لا تزال طفلة صغيرة، كي يتابع والدها دراسته للحصول على درجة الدكتوراه في الزراعة في جامعة وسكونسن بماديسون. وكانت عائلتها تعتزم بقوة العودة إلى السودان بعد إكمال والدها دراسته إذ كان والداها شديدي الإيمان بأهمية استخدام التعليم الذي حصلا عليه في أميركا في المساعدة في تنمية بلدهما الأم. غير أنهما منعا من تحقيق ذلك عندما وُضع والدها على اللائحة السوداء لأسباب سياسية ولم يُسمح له بالعودة. وبحلول الثمانينات من القرن الماضي، كانت عائلتها قد قطعت كل أمل بالعودة إلى السودان؛ وأصبح جميع أفراد العائلة، بمن فيهم هبة، مواطنين أميركيين سنة 1984.

وقد استفادت هبة إلى أقصى حد من الفرص التي أمنها لها بلدها الجديد وحصلت على شهادتي البكالوريوس والماجستير وثم على شهادة الدكتوراه من الجامعات الأميركية. وأصبحت خبيرة معروفة في حقلي تاريخ الشرق الأوسط والتاريخ الإسلامي، ولها إنتاج غزير حول هذين الموضوعين اللذين تدرسهما على المستوى الجامعي. وقدمت هبه أيضاً من معرفتها لجماهير أجنبية، إذ سافرت إلى العديد من البلدان، ومن ضمنها ملاوي، وترنيداد، وأوزبكستان وأذربيجان، ضمن «برنامج محاضر وصاحب اختصاص أميركي» التابع لوزارة الخارجية.

وتعتقد هبة أن مشاركتها في «برنامج محاضر وصاحب اختصاص أميركي» لم تسمح لها بتقديم مساهمة قيمة لمستمعيها الأجانب وحسب، بل عادت عليها أيضاً بالفائدة شخصياً ومهنياً. فالضيافة الكريمة واللطف الذي تلقته من مضيفيها الأجانب في البلدات والقرى الصغيرة وفي المدن الكبرى أيضاً، أمران لن تنساهما أبداً.

وقد أُعجبت أيضاً كثيراً بالطلاب الجامعيين الذين قابلتهم خلال برامجها في الخارج والذين لم يكونوا واسعي الاطلاع بشؤون الولايات المتحدة والبلدان الأخرى فقط، بل كانت لهم أيضاً نظرتهم الفريدة إلى العالم. وهي تقول إنها تمكنت، عبر محاولة رؤية العالم من خلال أعين هؤلاء الطلاب، من اكتساب نظرة جديدة إلى تجربتها الخاصة والتوصل إلى تقدير متجدّد للتنوع (أو التعددية) الثقافي. فكما تقول هبة: «كثيراً ما نعتبر الميزات التي نتمتع بها في هذا البلد أمراً مفروغاً منه، بحيث أننا ننسى أحياناً أن لدى شعوب البلدان الأخرى هي أيضاً شعورها الوطني الفريد وحب بلادها، المُتجذّرين في ثقافة وتاريخ تلك الشعوب».

لم تحد هبة أبداً، على الرغم من «نجاحها الأميركي»، عن القيم الإسلامية التقليدية، وهي تشعر أن تلك القيم لا تتعارض مع التقاليد الأميركية العلمانية كالحرية السياسية والفرص المتساوية. وهي تشعر بالتشجع نتيجة للنشاط السياسي المتزايد الذي يقوم به المسلمون الأميركيون الذين تعتقد هبة أن بوسعهم المساهمة كثيراً في العملية السياسية الأميركية وبإمكانهم لعب دور إيجابي في تفاعل أميركا مع الدول الإسلامية.

كما أن دين هبة الإسلامي لا يجعلها تشعر بأنها في مكان لا يلائمها في الولايات المتحدة. والواقع هو أنها تعتقد بأن العديد من الأميركيين غير راضين عن مجتمع علماني ومادي بحت، ويبحثون عن نوع من الروحانية، سواء جاءت من دين تقليدي مثل الإسلام أم من مصادر أقل تقليدية.

وعندما سُئلت هبة عن النصيحة التي يمكن أن تسديها إلى شاب / شابة ما، سواء في أميركا أم في الخارج، قالت إنها ستحث ذلك الشخص على السعي وراء المعرفة بكل أشكالها لأنها مفتاح النجاح في جميع مناحي الحياة، وكذلك مفتاح تحقيق الذات. وقد أثبتت حياة هبة نفسها صحة ذلك.

نبذات عن سِير

التغلب على الصعاب

أنَس إليزوفتش، لاجئ بوسني في التاسعة عشرة من العمر، يأمل في الحصول على الجنسية الأميركية هذا الصيف، وهو طالب في سنته الجامعية الأولى (فرشمان) في كلية / جامعة غراند فيو في مدينة ديموين، بولاية أيوا، حيث يقيم. وعندما تمر بكل ما مر به أنس في صغره – عندما تمر بالأمور المرعبة «شخصياً وعن قرب» كما مر هو، تصبح الولايات المتحدة الأميركية مكاناً يحلو العيش فيه جداً.

كان أنَس في السادسة من العمر، ويعيش في موستار، ثاني أكبر مدن البوسنه، عندما اندلعت الحرب سنة 1991. كانت حياة عائلة إليزوفتش مريحة. فقد كان والد أنَس، سدات، قائد هليكوبتر في الجيش البوسني طيلة عشر سنوات، بينما كان يعيش في منزله مع عائلته. وكانت أمه، ليوبيكا أو «لو» كما كان معظم الناس ينادونها، طبيبة نفسانية. وكان أخوه سمير، وهو الآن في السنة قبل النهائية في مدرسة ثانوية في ديموين، طفلاً.

وكانت عائلة إليزوفتش من حيث الدين، عائلة مختلطة: فسدات مسلم ولو كاثوليكية. ولكن العائلات البوسنية عاشت لفترة طويلة من الزمن لا تشعر بالخوف لأسباب دينية أو إثنية.

وبعد ذلك؟ يقول أنَس «بدأت الحرب في كرواتيا ولكننا كنا نعلم أن الصرب والكروات سوف يأتون إلى البوسنة لأنهم يريدون الأرض». وهو يتذكر أن القصف بالقنابل كان يبدأ «يومياً حوالي السادسة صباحاً. كان جرس الإنذار يرن وكان علينا جميعاً أن ننزل إلى الدور تحت الأرضي. كانت الطائرات تقصف من حولنا، وكان هناك إطلاق نيران طوال الوقت. كنت أشعر بخوف شديد، وكان كل ذلك يحدث بسرعة كبيرة لدرجة كان من الصعب معها فهم ما يجري».

«عشنا بطريقة ما نصف سنة والحرب دائرة من حولنا، لكن قيل لنا بعد ذلك إن علينا أن نرحل. كان علينا أن نحزم أمتعتنا ونرحل في يوم واحد، وكان علينا أن نترك كل ما نملكه وراءنا. لم تكن لدينا فكرة، على ما أذكر، عما إذا كان أحد ما سوف يعتقلنا، أو إذا كانوا سيدعوننا نغادر البلاد، أو حتى إذا كان بإمكاننا الذهاب إلى بلد آخر. كان علينا فقط أن نغادر».

أنَس إليزوفتش

نصح أحد أعمام أنس، وكان قد استقر في آخن بألمانيا، عائلة إليزوفتش بأن تحاول الانضمام إليه. ويقول أنَس: «كان علينا أن نغادر البوسنة دون والدي ولم نكن نعرف فعلاً إن كنا سنراه مرة أخرى. فلدي العديد من الأصدقاء الذين فقدوا آباءهم في الحرب».

بعد ثلاثة أيام، خرجت لو إليزوفتش وولداها الصغيران من البوسنة ووصلت إلى آخن بألمانيا، وبعد مضي ستة أشهر انضم إليهم سدات. وسعت العائلة إلى إعادة بناء حياتها في ألمانيا على أمل أن تصبح مؤهلة للحصول على الجنسية الألمانية بعد ست سنوات.

وقال أنس: «لكن ألمانيا قررت أن هناك الكثير من اللاجئين القادمين، فعدّلت القوانين بحيث صار من الضروري الإقامة هناك ثماني سنوات للتأهل للجنسية. وكان على الذين عاشوا هناك أقل من تلك المدة أن يغادروا.»

اتصل هوغو سماليوفيتش، صديقهم البوسني الذي استقر في أيوا، بالعائلة واقترح عليها الانضمام إليه. وبعد مقابلة في السفارة الأميركية في ألمانيا، قيل لعائلة إليزوفتش إنه سيُرحب بهم في الولايات المتحدة كلاجئين. وفي السادس عشر من شباط / فبراير 1999، وصلوا إلى ديموين ليصبحوا جزءاً من الجالية البوسنية البالغ عددها حوالى 3000 شخص استقروا في عاصمة ولاية أيوا.

والتحق أنس بمدارس ديموين في الصف الدراسي السابع. وكان يتقني اللغة الصربية – الكرواتية التي كان يتحدث بها الناس في البوسنه، واللغة الألمانية التي تعلمها في أوروبا، كما كان يتقن، إلى حد ما، اللغة الإنجليزية التي درسها مدة أربع سنوات في ألمانيا.

وكان يعرف أيضاً طريقة أخرى للتحدث إلى الناس، طريقة يفهما الناس ويحبونها في مختلف أنحاء العالم: كرة القدم (المعروفة بالسّوكر في الولايات المتحدة). وكان أنس قد بدأ يمارس اللعبة وهو في السادسة من عمره في البوسنه، عندما اندلعت الحرب، ثم لعب خلال السنوات الست التي أمضتها العائلة في ألمانيا.

وسرعان ما أصبح أنس، في منطقة ديموين، عضواً في فرق هواة، مع لاعبين بعضهم من عمره والبعض الآخر من البالغين. ثم أصبح، في ثانوية روزفلت، مبتدءاً لمدة أربع سنوات في منتخب الجامعة. وشبّ أنَس فأصبح طوله 1,8 متراً ووزنه 70 كيلو غراماً، وأصبح أحد اللاعبين القادرين على الركض، على ما يبدو، طيلة النهار دون تعب. وفي موسمه الرابع (السينيور)، أصبح أنَس أحد أفراد المنتخب الأول لكل الولاية. وقد سعت عدة جامعات إلى إقناعه بالالتحاق بها قبل أن يختار غراند فيو حيث ينوي دراسة الأعمال الدولية.

وقد نجح والداه اللذان أصبحا في الثانية والأربعين من العمر، في الانتقال إلى قطاع الأعمال الأميركي بشكل جيد. يعمل سدات الآن كمشرف في أحد المصانع، في حين تعمل لو كسمسارة عقارات ناجحة. وقد أصبحا يملكان ثلاثة بيوت تؤمن لهمادخلاً من الإيجارات. وتعمل العائلة كلها معاً في شركتهما الخاصة، Tip Top Cleaning (شركة تيب توب للتنظيفات)، التي تقوم بأعمال تنظيف البيوت والمكاتب وتنظف أيضاً مواقع ورش البناء.

وقبل ثلاث سنوات، طلب والدا أنَس منه في فصل الصيف أن يقبل القيام بعمل يدوي في مستودع للسلع، باشر العمل فيه العديد من البالغين البوسنيين في ديموين. شرح أنَس، «لم يجبرني والديّ على العمل بل كانا يريدان إعطائي صورة واضحة عن واقع الحياة. كنا نعمل من السادسة مساء لغاية الخامسة صباحاً. وعندما أدركت كم يشقى أبناء جاليتنا لإعالة عائلاتهم، شعرت باحترام جديد تماماً لهم».

ويقول أنَس أن العائلة هي أهم شيء بالنسبة له، كما هي بالنسبة للكثير من الشبان البوسنيين الذي جاءوا إلى الولايات المتحدة كلاجئين. ويضيف:»أشعر باحترام تام لوالديّ بسبب ما مررنا به. فقد كان عليهما، بسبب الحرب، أن يعثرا على سبل جديدة للحياة، وعلى وظائف جديدة، وأصدقاء جدد وبلدان جديدة. من العسير جداً أن يحاول الإنسان العيش في مجتمع مختلف. فعليك أن تكون قادراً على التكيّف مع قيم مختلفة».

يذكر أنَس بأن والده قال له إن الحرية، والآن فرصة الدراسة في جامعة في أميركا، «هما كمّن يُسلمك مفتاحا. والآن عليك أن تُدخل هذا المفتاح، وتديره إلى اليسار للإقفال أو إلى اليمين للفتح- وذلك قرار يعود إليك.»

ويوضح أنس أن مفهومه للحلم الأميركي يختلف قليلاً عما يعتقد أنه مفهوم بعض الأميركيين. ويقول «في رأيي، ليس المال كل شيء، الأهم أن يكون الإنسان سعيداً بما يفعل - وأن لا يستسلم أبدا.»

نبذات عن سِير

هيلين فيتزهيو

تحدّي التقاليد

عاشت هيلين فيتزهيو كامل القرن العشرين تقريباً. فقد ولدت في كانون الأول / ديسمبر 1910، وهي الآن في الرابعة والتسعين، ولا تزال محتفظة بنشاطها وتتطلع بحماسها وتفاؤلها المعهودين إلى ما سيحمله القرن الحادي والعشرين. وهيلين سيدة قصيرة القامة، نشطة، كلها حيوية وفضول ثقافي. وهي تحب العيش في مجتمع كندال للمتقاعدين في أوبرلين بولاية أوهايو حيث تجد نفسها على مقربة من كلية أوبرلين ومعهد موسيقاها الشهير عالمياً. ويمكن رؤيتها أحياناً كثيرة بين الحضور في المحاضرات والحفلات الموسيقية، جالسة في المقاعد الأمامية كي لا يفوتها شيء.

لم تكن حياة هيلين طويلة وحسب بل كانت أيضاً ملأى بالمغامرات، وبالجرأة، والإنجازات. تقول هيلين، «أنا من أصل قوي من المهاجرين. والدي هما جوزيف فاساو الذي استقرت عائلته الكندية – الفرنسية في ولاية ويسكونسن في أواسط القرن التاسع عشر، وتريزا هيرش التي جاءت عائلتها اليهودية من ألمانيا إلى الولايات المتحدة أيضاً في أواسط القرن التاسع عشر وأسست أعمالاً تجارية بولاية مونتانا. التقت العائلتان في مكان ما، لم أعد أذكر متى أو أين حدث ذلك، وتزوج ثلاثة من عائلة فاساو بثلاث بنات من عائلة هيرش. كان والدي، عندما تزوج، يعمل في شراء الماشية لشركة تعليب لحوم في سانت بول بولاية مينسوتا.»

قبل ذلك بسنوات قليلة، في 1862، أقر الكونغرس قانون «موقع الاستيطان» الذي يقدم منحة مساحتها 64 هكتاراً من الأراضي العامة للمستوطنين الذين يوافقون على البقاء على الأرض لمدة خمس سنوات، ويدخلون عليها تحسينات. قدم جوزيف فاساو طلباً للحصول على موقع استيطان وأُعطي واحداً في نورث داكوتا، على مسافة 24 كيلومتراً من الحدود الكندية بالقرب من ويللو سيتي، وهي بلدة يبلغ عدد سكانها 500 نسمة. فانتقل هو وزوجته إلى هناك وبنيا بيتاً وزرعا حديقة كبيرة، وربيا بقرتين، أو ثلاث بقرات، وعملا في الزراعة بما يكفي لإعالة أنفسهم. واستمر جوزيف في عمله في مصنع تعليب اللحوم. وتقول هيلين: «كانت حياة والدي صعبة. كان برد مواسم الشتاء قارصاً، لكنهما ثابرا.» وقد ولد أطفالهما الخمسة في بيت الأسرة – أربعة صبيان، وثم هيلين، طفلة العائلة.

وبعد أن أنهت هيلين صف الدراسة الثامن في مدرسة ويللو سيتي، انتقلت العائلة إلى بلدة صغيرة في جنوب شرق مونتانا. وقالت هيلين إن أستاذ العلوم في مدرستها الجديدة «قال إنني قد أود متابعة مقرراته التعليمية.» وقد أحبت هيلين تلك المقررات لكن الطلاب الآخرين ذُهلوا من ذلك لأنه كان يعتقد في تلك الأيام أن العلوم غير «مناسبة» للفتيات. ولكن هيلين تفوقت، على جميع التلاميذ الآخرين في صفها، وأرسلت للاشتراك بمسابقة العلوم على مستوى الولاية، ففازت بها، متفوقة على عدد من الفتيان المستهجنين للأمر.

وعندما قرر والدها أن المدارس في مونتانا ليست جيدة بما فيه الكفاية لابنته الذكية الباحثة عن المعرفة، أرسل هيلين للعيش مع أحد أشقائها الكبار في مينيابولس بولاية منسوتا. وقد أتمت هناك جميع المقررات العلمية المتوفرة في المدرسة الثانوية ثم التحقت بجامعة منسوتا حيث تخصصت في العلوم والرياضيات. غير أن أستاذ الكيمياء صعّب الأمور بوجه هيلين والطالبات الأخريات إلى حد دفعها في نهاية المطاف إلى المغادرة والانتقال إلى جامعة كولورادو (قبل الحصول على الشهادة الجامعية).

وكان قد بدأ آنذاك، أي في الثلاثينات من القرن الماضي، الكساد الاقتصادي الكبير فأصبح «المال نادراً». وهكذا، حصلت هيلين على شهادة تعليم إذ كانت هذه مهنة تُرحّب بالنساء وعثرت على وظيفة تعليم في مدرسة ريفية مؤلفة من حجرة تدريس واحدة في شرق كولورادو. وقد عاشت هيلين مع عائلة من المزارعين وكانت تدرس من 8 إلى 10 طلاب في جميع صفوف الدراسة الابتدائية. وقد درّست هناك لمدة سنتين، وكانت تذهب خلال الصيف إلى الجامعة وتتابع الدراسة للحصول على شهادة جامعية.

بعدها عُرض على هيلين وظيفة في غرين ريفر بولاية وايومنغ. قالت «قبلت، ووجدت أنني سأدرّس العلوم لجميع الصفوف الابتدائية في المدرسة مما أسعدني جدا. ثم تعرفت في الفندق الذي كنت أعيش فيه، بإدوارد فتزهيو جونيور، الذي كان يعمل مع شركة سكة الحديد يونيون باسفيك، منقباً عن المعادن في أراضي الشركة. وقد أمضينا الكثير من الأمسيات في المخزن/المقهى الملحق بالفندق لنتعرف على بعضنا البعض.»

وما لبثا أن تزوجا في آب/أغسطس 1942. وتقول هيلين، «بعدها بقليل، استُدعي إدوارد إلى واشنطن العاصمة للعمل في مكتب المناجم. كانت الحرب العالمية الثانية دائرة وكانت الحكومة الأميركية تبحث عمن يساعد في العثور على المعادن الضرورية للمجهود الحربي». حصلت هيلين على وظيفة هناك بصورة شبه فورية، فدرّست العلوم ومن ثم الكيمياء. وهي تقول حول ذلك: «مع وجود ذلك العدد الكبير من الرجال في الجيش، أصبح هناك فجأة طلب على النساء ممن يعرفن العلوم.»

وبعد الحرب، عاشت هيلين وإدوارد بضع سنوات في ولاية نيويورك حيث أنجبا ولديهما، آن وإدّ، ثم انتقلا إلى كليفلاند بولاية أوهايو. وأصبح إدوارد هناك رئيس الجيولوجيين في شركة ريبابلك ستيل كوربوريشن. وعلى مر السنين، قطع إدوارد مسافات طويلة تزيد عن 500 ألف ميل لحساب الشركة بحثاً عن المعادن في أميركا الجنوبية وأفريقيا والشرق الأوسط والشرق الأقصى.

وتقول هيلين، «عندما أصبح أولادنا في سن يسمح لي بالتغيب بعض الوقت، بدأت أسافر مع زوجي». وقد زارت كل بلد في أميركا الجنوبية بالإضافة إلى الصين، واليابان، وروسيا، وبعض أنحاء أوروبا.

وبعد وفاة إدوارد سنة 1989، استمرت هيلين في العيش في كليفلاند لغاية سنة 2001 عندما انتقلت إلى كندال في أوبرلين. وسيعتني نظام الرعاية الصحي في كندال بهيلين ما دامت على قيد الحياة، وإن كانت تبدو نشطة لدرجة أنها لن تحتاج إلى الرعاية قريبا.

عندما تستعيد هيلين في ذاكرتها تفاصيل حياة تكاد تعادل امتداد قرن من الزمن، تشعر بالسعادة لأنها عاشت في الفترة التي عاشتها. وهي تقول: «كان علينا أن نعمل بجد في سبيل ما حصلنا عليه، وكنا سعداء بذلك. لم نكن نتوقع أن يقدم لنا أحد ذلك.» وتؤمن هيلين أيضاً بقوة «بمعاملة الآخرين كما أعامل نفسي. أحاول دائماً سؤال نفسي إذا كان ما سأفعله أو سأقوله سيؤذي أحداً. إنني أعتقد أن المبدأ القائل «عامل الآخرين كما تود أن تُعامل» طريقة جيدة جداً للنظر إلى الحياة، بالنسبة للدول وللناس أيضا. وليتنا كنا نستطيع العيش بهذه الطريقة، لأننا كنا سنكون جميعاً في وضع أفضل».

نبذات عن سِير

ريموندو غوفيا

العمل بنزاهة

«دعوني أحدثكم عن الحلم الأميركي» يقول ريموندو غوفيا، البالغ الرابعة والثلاثين من العمر. «إنه فرصة الحصول على عمل، وفرصة دخول الجامعة، وإثبات نفسي، والزواج، وشراء بيت، والعيش في دولة حرة».

كان ريموندو في الرابعة عشرة عندما شجعه عمّه على ترك منزله في سان خواكين في المكسيك (سكانها 40 شخصاً) والانتقال إلى هيوستن بولاية تكساس، كي يذهب إلى المدرسة. وكان انتقاله سيعيد أيضاً جمع ريموندو بوالده الذي كان في هيوستن يعمل لكسب المال لإعالة زوجته وأولاده الأربعة في سان خواكين. حصل ريموندو على تأشيرة مؤقتة لزيارة هيوستن، وقرر البقاء هناك والتحق بالصف السادس في المدرسة. ولم يكن يتكلم الإنكليزية.

قال، «رغم أنني كافحت لعدم إتقاني اللغة إلا أن كل شيء جرى على ما يرام في المدرسة لمدة ثمانية أشهر». لكن ريموندو اكتشف أنه يحب كسب المال لنفسه، ولإرساله إلى ذويه، فترك المدرسة للعمل في مطعم في هيوستن. وبعد حوالي سنة، أقنع قريب لريموندو، يعمل في بلتيمور بولاية ميريلاند بشركة بريكمان غروب، وهي شركة قومية تقدم الخدمات المتعلقة بهندسة المناظر الطبيعية، أقنعه بالمجيء إلى بلتيمور. وكان ريموندو آنذاك في السادسة عشرة من العمر. فادخر المال اللازم واشترى بطاقة سفر بالطائرة.

يقول ريموندو، «عندما أخذني ابن عمي إلى شركة بريكمان لطلب وظيفة، قلت لهم إن عمري 18 سنة لأنني كنت فعلاً أريد العمل هناك». كان ذلك سنة 1986، وكانت الأوراق الثبوتية الوحيدة الضرورية للتوظيف، بطاقة التعريف بالهوية وبطاقة الضمان الاجتماعي، وكان ريموندو قد حصل عليهما في تكساس. وقد قُبل ريموندو وانضم إلى طاقم يجزّ الأعشاب في مُجّمع سكني ضخم.

لن ينسى ريموندو أبداً يومه الأول في الوظيفة. كان المُجّمع السكني أكبر من أي شيء رآه في السابق، وكانت جميع المباني والطرقات والحدائق العشبية الممتدة أمام جميع المباني متشابهة. وقد حُدد له المكان الذي سيجز العشب فيه والمكان الذي سيلتقي فيه مع باقي أفراد الطاقم عندما ينتهي من العمل. وهو يروي ما حدث بعد ذلك بالقول:«دفعتُ جزّازة العشب حول أحد المباني، ثم حول مبنى آخر، فآخر، ثم لاحظت بعد ذلك أنني قد أضعت طريقي. تركت الجزّازة مكانها وبدأت أسير على أمل أن ألتقي بأحد أفراد الطاقم. أخيراً اجتمعنا لكن كان علينا بعد ذلك أن نعثر على الجزّازة.»

وكان المشرف الأول على ريموندو شديداً وصارماً. «علمّني كيف أجزّ العشب وكيف أرتبه وكيف أقلب التربة وأسوّيها وكيف أزرع وكيف أفعل كل هذا بشكل جيد. وكان علي أن أعود وأصحح أي شيء فعلته خطأً.»

وكان ريموندو مُصمماً على التعلم قدر المستطاع كي يتقدم، وبعد سنتين حصل على ثمرة جده. فقد أُتيحت له فرصة الإشراف على طاقم عمل. يتذكر ريموندو، «ترقيتي أثارتني، لكن كان علي أن أقرّ أنني كذبت بالنسبة لعمري عندما قُبلت. أعرف أنه كان علي ألا أفعل ذلك، ولكنني كنت بحاجة إلى الوظيفة لمساعدة عائلتي». يومها كان ريموندو قد بلغ الثامنة عشرة، ووافقت شركة بريكمان على بقائه في الوظيفة لكنها اشترطت عليه الحصول على إذن عمل وعلى رخصة قيادة سيارة. ففعل. كما بدأ يعمل لأجل الحصول على «البطاقة الخضراء» (ليبدأ إقامة دائمة مثبتة في الولايات المتحدة) وعلى الجنسية الأميركية التي نالها سنة 1995.

وخلال سنواته الأولى في بلتيمور، كان ريموندو يعمل خلال النهار في شركة بريكمان ويدرس الإنجليزية ليلاً. كان ذلك صعباً لكنه كان يعلم أن عليه دراسة اللغة لإحراز تقدم، وفعل. وبعد مرور حوالي خمس سنوات على حادثة ضياعه في المجّمع السكني، أصبح ريموندو مراقب صيانة لدى بريكمان، مما عنى أنه أصبح مسؤولاً عن الإشراف على ستة طواقم يتألف كل منها من خمسة أو ستة رجال، معظمهم من المتحدرين من دول ناطقة بالإسبانية (هسبانك) الذين يأملون هم أيضاً في فرصة لإثبات أنفسهم. وكانت نصيحته لهم نفس النصيحة التي أُعطيت له: «بإمكانكم أن تنجحوا إذا كنتم منضبطين ومستعدين لعمل كل ما هو ضروري لإتمام العمل على الوجه الصحيح.»

ويعتقد ريموندو أنه يمكن تجنب معظم المشاكل الأخلاقية في مكان العمل «ما دمت أقول لطواقمي ماذا أنتظر منهم مهنياً وشخصياً وما سيحدث إن هم خانوا هذه الثقة. ومن حسن الحظ أنه لم يكن لدي مشاكل كثيرة من هذا النوع». وما من شك في أن ريموندو يُحبّ عمله: «إنها أفضل وظيفة. إنها تتيح لي العمل في الخارج مع الشباب، ومع الإدارة، وأنا فخور بما نفعله.»

وقد أمضى ريموندو حتى الآن 18 سنة مع شركة بريكمان وهو يعتبر موظفاً استثنائياً. ويقول مارك لوكاس، مدير فرع بلتيمور بشركة بريكمان، «ريمونودو يدافع عن الناس: أخلاقه عالية، ويهتم بأمور الآخرين، وهو دؤوب على العمل، ويسعد المرء أن يكون معه.» وقد ظهر ريموندو في أشرطة فيديو شركة بريكمان للتدريب وهو يتحدث أحياناً كثيرة أمام مجموعات من الموظفين عن حياته. قال «أُذكّر الناس أن لا يستخفوا بالامتيازات التي نتمتع بها في هذا البلد ويعتبروها أمراً مفروغاً منه.»

لقد تغيّر الكثير منذ أن هاجر ريموندو قبل 20 سنة إلى الولايات المتحدة. يقول: «التكنولوجيا هي التغيير الأكبر وقد احتجت إلى وقت طويل للاعتياد على الكومبيوتر. هناك الآن أيضاً في كل مكان العديد من الناس المتحدثين بالإسبانية والعديد من المتاجر الإسبانية.»

ريموندو متزوج ولزوجته ابن من زواج سابق، وهو ينصح الشباب كلما أمكنه ذلك، أن «حصّلوا العلم؛ إذا عملتم بجد وكدّ يمكنكم ان تُكوّنوا أنفسكم». ويقوم ريمندو، خارج ساعات العمل أو في الأوقات التي لا يتابع فيها مباريات فريق بلتيمور رايفنز للفوتبول الأميركي، بمساعدة جيرانه، والكثيرون منهم أكبر منه سنا، في هندسة حدائقهم والاعتناء بها.

وقبل حوالي 10 سنوات، أحضر ريموندو أمه وأشقاءه للعيش في بلتيمور. وهو يقول: «عائلتي وديني هما أهم شيء في حياتي».

نبذات عن سِير

مايكل جينبو

الموازنة بين الحرية والمسؤولية

أصبح مايكل جينبو المتحدر من أسلاف أميركيين- يابانيين في هنولولو بجزر هاواي شخصية مرموقة في أوساط الموسيقى الكلاسيكية الأميركية. فهو المدير الموسيقي لمدرسة بيير مونتو لقادة الفرق الموسيقية ولموسيقيي فرق الأوركسترا في هانكوك بولاية ماين، وقائد فرقة نيتاني فالي السمفونية في كلية الولاية ببنسلفانيا. وعندما لا يكون في أحد هذين المكانين، يعيش في مدينة نيويورك.

غادر والدا جدّ مايكل اليابان إلى هاواي في وقت ما من أواخر القرن التاسع عشر، وعاشت الأجيال التالية من عائلته في هاواي التي كانت مملكة لغاية سنة 1893 ثم أصبحت أرضاً تابعة للولايات المتحدة سنة 1900، وقُبلت في الاتحاد بصفتها الولاية الخمسين سنة 1959. وقد أصبحت هاواي ولاية أميركية بعد ثلاث سنوات من ولادة مايكل، في أيار/مايو 1956، وهو لذلك لا يتذكر أي وقت لم يعتبر فيه نفسه مواطناً أميركياً، وان كان الآخرون غير متأكدين. فعندما ذهب مايكل إلى مهرجان موسيقي في كاليفورنيا وهو طالب في المدرسة الثانوية، سأله عدد من الناس عما إذا كانت هذه أول زيارة يقوم بها للولايات المتحدة. ويذكر مايكل، «لم يعجبني ذلك كثيراً».

وقد بدأ اهتمام مايكل بالموسيقى في المدرسة الابتدائية. وهو يقول عن ذلك: «درست في المدارس الحكومية الرسمية عندما كنت طفلاً، وفي صف الدراسة الخامس خضعنا جميعنا لاختبار حول قابليتنا الموسيقية لتقييم إدراكنا للنغم والإيقاع. وعرض على بعض الطلاب، استناداً إلى الاختبار، فرصة تعلّم آلة وتريّة في مجموعة «الصفوف الوترية» في الصف السادس. وأذكر أني أدركت لِتوّه أنني كنت أريد أن أقوم بذلك على الرغم من أنه لم يكن لي تجربة بالموسيقى في البيت. كانت فكرة العزف على الكمان تروق لي.»

وقد أكمل مايكل الصفوف الوترية في صفي الدراسة السادس والسابع في المدرسة الرسمية ثم بدأ يأخذ دروساً خاصة في العزف على الكمان في الصف الثامن. قال، «مع أنني كنت من البادئين المتأخرين كعازف أوتار، تقدّمت بسرعة وأصبحت واحداً من أفضل الذين من عمري في هاواي، وانتهى الأمر بأن كنت قد أصبحت العازف الأول على الكمان في أوركسترا هاواي السمفونية للشبان، وفي أوركسترا الولاية في هاواي بحلول فترة دراستي الثانوية، وعزفت منفرداً بصفتي الفائز في مسابقة كونسرتو، مع فرقة هنولولو السمفونية في سنة دراستي الثانوية الأخيرة.»

وكان مايكل ملقي خطاب حفل الوداع باسم الطلبة في حفل التخرج في مدرسته الثانوية، وقبلت خمس من الجامعات الكبرى طلبه الالتحاق بها، وانتهى به الأمر إلى اختيار جامعة شيكاغو «بسبب مقدار المساعدة التي تلقّاها». وقال حول ذلك:»عندما أخذنا بعين الاعتبار نوعية المدرسة، وكلفة التعليم ومبلغ المساعدة المالية الممنوحة، كانت جامعة شيكاغو أفضل جامعة بوسع عائلتي تحمل تكاليفها، وحتى ذلك كان بصعوبة كبيرة.»

كان مايكل العازف الأول في أوركسترا الجامعة طيلة السنوات الأربع التي أمضاها فيها، وفي سنة التخرج بدأ يقود (الفرقة). قال مايكل، «عرضت عليّ صديقة لي إعطائي أوركسترا من الشبان الصغار لم تعد تهتم بقيادتها وكانت وظيفة بدوام جزئي. فدرست المقرر الدراسي الخاص الوحيد المتوفر في الجامعة، وحصلت على بعض فرص القيادة كقائد أوركسترا ضيف، ثم نظمتُ بعض الحفلات الموسيقية.»

بعد حصوله على شهادة البكالوريوس في الموسيقى من جامعة شيكاغو، وشهادة الماجستير في قيادة الفرق الموسيقية من كلية الموسيقى بجامعة نورثوسترن، التحق مايكل بمدرسة بيار مونتو لأول مرة في صيف 1983 (أسس مونتو الذي ولد في فرنسا وأصبح مواطناً أميركياً عام 1942 ويعتبر أحد كبار قادة الأوركسترا في القرن العشرين، مدرسة صيفية سنة 1943 لا تزال تستقطب قادة وعازفي الأوركسترا إلى ولاية ماين من كل أرجاء العالم. وعندما بدأ مايكل الدراسة هناك، كانت المدرسة برئاسة تشارلز براك الذي كان أحد تلامذة مونتو في باريس والذي تسلم الرئاسة بعد وفاة هذا الأخير سنة 1964).

وقد ازدهرت حياة مايكل جينبو المهنية بسرعة. قال، «سنة 1990، عُرض علي العمل كمدير موسيقى وقائد فرقة نيتاني فالي السمفونية في بنسلفانيا، وكان المنصب بدوام جزئي. وبما أن الدوام كان جزئياً، كنت أنتقل إلى هناك من شيكاغو حيث كنت

أعيش، كلما كان ذلك ضرورياً. وواصلت العمل كعازف كمان حر في شيكاغو كذلك. وبعد سنتين، فزت باختبار موسيقي لملء وظيفة مساعد قائد الأوركسترا مع فرقة نورث كارولاينا السمفونية. وأخيراً، في أواسط الثلاثينات من عمري، أصبحت أعمل كقائد أوركسترا بدوام كامل.»

وعلاوة على ذلك، استمر مايكل في الذهاب إلى ولاية ماين كل موسم صيف للدراسة على يد براك في مدرسة مونتو، وأصبح مساعداً لبراك. وعندما توفي براك في صيف 1995، خلال دورة الأسابيع الستة، استلم مايكل صفوف الدراسة، وأنهى الدورة وعُيّن لاحقاً مديراً للموسيقى من قبل مجلس أمناء الكلية. فاستقال من وظيفته في فرقة نورث كارولاينا السمفونية وهو الآن في موسمه الخامس عشر مع فرقة نيتاني فالي السمفونية، وسوف يحتفل بمرور عشر سنوات على توليه منصب المدير الموسيقي في مدرسة مونتو في صيف 2005.

ويعتبر مايكل نجاحه دليلاً على صحة وجود الحلم الأميركي القابل للتحقيق. ويقول:»هذا بلد يمنحنا الحرية لنكون ما نريد أن نكونه، ونعمل ما نريد عمله، ما دمنا نتقبل المسؤولية والقيود التي يجب أن تتعايش مع تلك الحرية».

ولكن مايكل يدرك، رغم ذلك، أن الأمور آخذة في التغير كثيرا. فقد قال: «يبدو لي أن العالم كله، لا بلدنا وحده، آخذ في التغير الآن بسرعة كبيرة وفي أن يصبح أكثر تعقيداً بكثير. إنني أشعر أن العالم لم يعد ينظر إلينا نحن الأميركيين كما كان ينظر إلينا في السابق، كما أننا لم نعد ننظر إلى أنفسنا بنفس الطريقة. فهناك العديد من المشاعر القوية والمتناقضة بين مختلف أنواع الناس، الأمر الذي أجده مؤسفاً. «

لكن مايكل يظل متفائلاً، فيقول، «بوسعنا استعادة نظرتنا إلى أنفسنا بمجرد اتباعنا بعض القواعد القليلة البسيطة: إفعل أفضل ما يمكنك، وحاول دائماً أن تحمل أفضل فكرة عن الآخرين، وتعلمّ كيف تكون مَرناً. ولعل القاعدة الأخيرة هي الأصعب.»

روبرت تايلور

نبذات عن سِير

ستيفن جونسون

إدارة المخاطر

ستيفن جونسون الذي عاش في سنغافوره خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة هو حالياً مدير مجموعة آسيافركس غلوبل إنفستمنت غروب. ولستيف خلفية عائلية فريدة وكذلك قصة حياة مثيرة للاهتمام. فقد ولد في ولاية مشيغان لأب من سكان أميركا الأصليين الأقحاح (أميركي هندي) من قبيلة ساجيناو شيبيّوا، ولأم من أصل بولندي كاثوليكي وروسي يهودي. وقد التقى والداه عندما كانا على مقاعد الدراسة في جامعة مشيغان.

عندما كان ستيفن مراهقاً، لفتت مهارته في الفوتبول الأميركي وكذلك سجلاته الأكاديمية الممتازة في المدرسة الثانوية، أنظار عدد من المكلفين استقطاب الطلبة الجدد إلى أفضل وأشهر الجامعات الأميركية المعروفة بجامعات الآيفي ليغ، بما فيها جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا، حيث لعب وقاد فريق الفوتبول الأميركي إضافة إلى مواصلة دراسته. وقد علمته جامعة بنسلفانيا، حيث تخصص في الدراسات المالية في كلية وارتن، أكثر من مجرد الدراسات الأكاديمية. فكما قال: «تعلمت العديد من الدروس هناك، معظمها خارج حجرة الدراسة. كانت (الجامعة) بوتقة ينصهر فيها أناس من كل مناحي الحياة، يدفع كل واحد منهم الآخرين لإنجاز أمور عظيمة.»

وتعلم ستيفن قيمة الجد في العمل خارج حجرة الدراسة كذلك. فخلال معظم أشهر العطلة الصيفية أثناء دراسته الجامعية، عمل في ورش البناء ستة أيام في الأسبوع ولغاية 12 ساعة في اليوم. وكان لديه عشق للمغامرة والسفر وأمضى إحدى الإجازات الصيفية أثناء دراسته الجامعية في المملكة المتحدة بموجب إذن عمل ضمن برنامج مبادلات. غادر ستيفن إلى لندن دون أن يكون قد حصل على أي عمل محدد أو حتى مكان مُعيّن ليقيم فيه، معتقداً أنه سيكون من السهل العثور على الأمرين. ولكنه أدرك أنه كان مخطئاً، وكان عليه أن يجد في البحث فترة طويلة قبل أن يعثر في نهاية المطاف على وظيفة في حانة (بَب) في ساوث كنسنغتون تدعى إينجلسي آرمز. ولكنه لم يرض بذلك العمل وحده، بل استمر يبحث إلى أن عثر على وظيفة لها علاقة بالشؤون المالية. وهكذا أصبح يعمل في الشؤون المالية خلال النهار لكنه احتفظ بوظيفته في الحانة ثلاث ليالٍ في الأسبوع لأنه كان يحب التعرف على الناس المحليين وعلى الحياة البريطانية. ويقول ستيفن إن عمله في النهار ساعده على وضع الأسس لحياته المهنية الناجحة، كما أن الوقت الذي أمضاه في لندن حفّز لديه اهتماماً على مدى حياته بالشعوب والثقافات الأجنبية.

وقد أمضى ستيفن معظم حياته المهنية في مجال إدارة المخاطر والمتاجرة بالمشتقات بالعملات الأجنبية، وهو مجال مثير يدر الأرباح الهائلة ولكنه ينطوي على مخاطرة كبيرة. وكما قال ستيفن: « إن مُعدّلات المبادلات الخارجية تكون عادة أول مؤشّر على تأثير الأحداث العالمية، لذلك أجد أنه من المثير أن أذهب إلى عملي كل يوم وأجده يحمل الجديد في كل يوم.»

كما وفرت وظيفة ستيفن له أيضاً فرصة السفر على نطاق واسع في آسيا والتعرف على ثقافات وشعوب القارة المختلفة. وهو يقول إنه كان من المجزي جداً له، شخصياً ومهنياً، كسب المعرفة العميقة عن الثقافات الأجنبية التي لا يمكن اكتسابها إلا من خلال الانفتاح الطويل الأجل والمراقبة بفكر مُنفتح. وفي رأيه أن الأميركيين الذين نادراً ما يسافرون، إن هم سافروا على الإطلاق، إلى خارج الولايات المتحدة ميالون لأن تكون لديهم وجهة نظر من منظور أميركي إلى حد مفرط، وأنهم سيستفيدون لو تعرفوا أكثر على الثقافات الأخرى. كما أنه وجد أيضاً أن الفترة التي عاشها في الخارج أتاحت له النظر إلى بلده بشكل أكثر موضوعية مما لو عاش طيلة حياته في الولايات المتحدة. غير أن سنوات ستيفن الطويلة في الخارج لم تخفف من إعجابه بالولايات المتحدة، أو من اعتداده بتراثه كأحد سكان أميركا الأصليين. وقد هرع ستيفن من سنغافوره إلى واشنطن العاصمة للاشتراك في افتتاح المتحف القومي للهندي الأميركي في أيلول / سبتمبر 2004. وقد شكّل حضوره الافتتاح وتمكنه من السير بلباسه التقليدي في المرج المعروف باسم «الناشيونال مول» في واشنطن مع عشرات الألوف من الأميركيين الأصليين المرتدين اللباس التقليدي تجربة عاطفية للغاية بالنسبة له. فهو، مثله مثل العديد من المتحدرين من سكان أميركا الأصليين، يدرك بعمق المظالم التاريخية الماضية التي مورست بحق الشعوب الأميركية الأصلية، ويعتقد أن افتتاح المتحف القومي للهندي الأميركين قد وفّر في نهاية المطاف اعترافاً ملائماً بأول مجموعة استوطنت البلد وبالمساهمات العديدة التي قدمها الأميركيون الأصليون في كل مظهر من مظاهر الحياة والثقافة الأميركية.

نبذات عن سِير

أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه

تقول آن كورف، الكاتبة في صحيفة نيوبورت نيوز، بولاية فرجينيا: «كان طموحي الباكر في الحياة محاولة القيام بأي شيء أجده جديراً بالاهتمام ومثيراً، والسفر كثيراً ودراسة الناس، وان أتذكر أن النجاح يعني فقط أن يعاود الإنسان النهوض مرة واحدة أكثر مما يسقط.» وهي تضيف بتواضع «ما زلتُ في مرحلة تكوين نفسي»وإن كانت في الواقع قد نجحت بصورة ملفتة في تحقيق طموحات حياتها.

يشتمل موجز الحياة المهنية لآن كورف على كل شيء، بدءاً بالخدمة في البحرية الأميركية، إلى الغناء في ملهى ليلي، والى تقديم برامج عن الطبخ والأحوال الجوية في التلفزيون. وقد ترمّلت آن مرتين وهي شابه وربّت خمسة أولاد وهي تشغل وظيفتين. وكانت، كلما كان ذلك ممكناً، تأخذ الأولاد معها إلى مكان عملها الثاني، وتدعهم ينامون في غرفة الملابس في الملهى الليلي أو تحت كونتوار في مكتب لتأجير السيارات في المطار.

والآن، وقد أصبحت في أواسط السبعينات من العمر، ومتزوجة من ضابط متقاعد في السلاح الجوي، لا زالت آن مشغولة أكثر من أي وقت سابق، إذ إنها تدير جوقة نسائية للترتيل الكورالي مؤلفة من 32 امرأة (أسستها أيضاً)، وتسافر وتقود رحلات سياحية إلى اسكتلندا، وتكتب المقالات للمجلات والنشرات الدورية، وتعمل كمتطوعة في كنيستها وفي مركز للطبيعة وفي منظمات مدنية وعسكرية مختلفة. وقد قالت ضاحكة: «أريد أن أستهلك وأنا أعمل لا أن أصدأ.»

ترعرعت آن في سافانّا بولاية جيورجيا في قلب الجنوب الأميركي. وكان والدا أمها قد وفدا من أوروبا الشرقية حوالي سنة 1900 وتزوجا في الولايات المتحدة. أما والدها الاسكتلندي فكان قد زار الولايات المتحدة مراراً كثيرة برفقة فرقة موسيقية واستوطن في نهاية المطاف في ولاية جيورجيا عندما لم يجد المال للعودة إلى وطنه الأصلي. وخلال طفولة آن، تنقّل والدها في جنوب البلاد مشاركاً في عروض المنوعات الترفيهية.

عندما كانت آن شابة، وغير قادرة على دخول الجامعة، انضمت إلى البحرية سنة 1950 خلال الحرب الكورية، وتتذكر قائلة: «كنت أريد فعلاً خدمة بلادي لأنني كنت أخشى أن نفقد حريتنا

آن كورف

إذا لم يعمل الناس من أجلها»، وتضيف «كانت هذه أيضاً فرصة لي لتوسعة ثقافتي.»

ولم يكن يُسمح آنذاك للنساء في البحرية ركوب البحار، كما قالت آن، لكن «لأول مرة في حياة الكثير من النساء، تلقينا نفس الأجور التي يتلقاها الرجال لنفس العمل». وأضافت، أن موقف المدنيين في المجتمع لم يكن دوماً إيجابياً، «إذ كان يُنظر إلينا على أننا نحاول اصطياد الأزواج وأننا نساء فاجرات. والحقيقة هي أننا كنا نخضع لرقابة صارمة. كان علينا أن نعيش في ثكنات، وكان هناك موعد يمنع خروجنا منها بعده، وأماكن لا يحق للرجال دخولها. كان ذلك أشبه بالعيش في دير.»

بعد مضى ثلاث سنوات ونصف السنة في الخدمة في قواعد مختلفة، من فلوريدا إلى بيرل هاربور، تركت آن البحرية والتحقت بالجامعة بموجب ما يعرف بمشروع قانون الجنود الأميركيين الذي يؤمن التعليم المجاني للمحاربين القدامى. وكانت آن تعمل بدوام كامل أثناء دراستها الجامعية، وقد قررت في إحدى المرات دراسة أحد المقررات في السادسة صباحاً في كلية تبعد ساعة بالسيارة عن سافانا، فكانت تفعل ذلك ثم تعود لتبدأ عملها في التاسعة صباحا.»

بعد حصولها على شهادة مزدوجة في الصحافة والسيكولوجيا، عملت آن كمحررة وكاتبة، ووكيلة صحفية لسياسيين، وكاتبة إعلانات، ومقدمة برامج على الهواء في الإذاعة والتلفزيون. وهي تقول: «أظن أن أفضل وظيفة بالنسبة لي كانت العمل كمديرة لترويج المبيعات لسلسلة من مراكز التسوق إذ أتيحت لي فيها فرصة استخدام كل ما أعرفه. فقد ساعدت في افتتاح مراكز تسوق ووضعت برنامجاً للعلاقات الخارجية، وقدمت عروضاً إذاعية وتلفزيونية أسبوعية، وكتبت في أعمدة الصحف، وظهرت شخصياً أمام مجموعات من السكان المحليين.»

وتعتبر آن أن من بين أضخم التغيرات التي شهدتها في الحياة الأميركية، «الفرص المتوفرة الآن للمرأة والتي لم تكن موجودة قبلاً، ونظرة الناس إلى دور المرأة في المجتمع كأكثر من مُجرّد حاضنة ومربية للأطفال». لكنها ترى أن هذه التغيرات فرضت ثمنا لأن «النساء لم يعدن يشرفن على تنشئة الأطفال كالسابق

لأنه لم يعد لديهن نفس الوقت الذي كان متوفراً في السابق للاستمتاع بالحياة مع أولادهن.» كما أنها تقول إن انشغال الأميركيين أكثر في محاولتهم الموازنة بين المهنة والعائلة، أصبح»الناس عامة أقل تهذيباً وأقل كياسة في خطابهم اليومي.»

ترى آن أيضاً فرقاً بين الحلم الأميركي النموذجي المتعلق بالحرية الشخصية الكاملة والاستقلال التام، وبين الحلم الأميركي القابل للتحقيق، الذي تعتقد أنه يجب أن يتضّمن الوعي الاجتماعي. «فالمرأة، مثلاً، بوسعها أن تخرج وتحصل على وظيفة مسؤولة وتكسب المال الذي تريده فقط لأن هناك نساء قد سبقنها في دفع الأمور والحث وتحقيق التغيير في مكان العمل وفي القوانين. علينا جميعاً الآن مسؤولية خلق جو جديد للناس الذين سوف يأتون بعدنا.»

وآن سيدة شديدة التدّين، وهي تقول إن إيمانها بالله هو أهم شيء في حياتها، وإنها، عندما تواجه قراراً أخلاقياً، فإن «أول ما أقوم به هو الابتهال إلى الله بأن يساعدني في معرفة الصواب.»

تقدم آن هذه النصيحة إلى أبناء الجيل القادم: «كونوا صادقين مع أنفسكم. عليكم أن تنظروا في المرآة كل يوم (وتواجهوا أنفسكم). أنتم تعرفون ما إذا كنتم تخونون معتقداتكم الأساسية، وإذا كنتم تعيشون كذبة أو إذا كنتم قساة مع الآخرين. كونوا صادقين مع أنفسكم.»

نبذات عن سير

بلا غرور

خلال مؤتمر دولي بالفيديو الرقمي بواسطة وسائل الاتصال الإلكترونية في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي، سأل شخص من مدينة منسك، الممثل الأميركي البالغ من العمر ستة عشر عاماً، هالي جويل أوزمنت، إن كان يملك رخصة قيادة سيارة، وفي حال الإيجاب، ما هو نوع السيارة التي يقودها. أجاب أوزمنت أنه يقود «سيارة العائلة من طراز ساتورن التي هي سيارة أميركية جيدة الصنع». وكان جوابه منسجماً مع الصورة التي برزت خلال المقابلة التي أجريت معه، وهي صورة شاب صاحب مهنة تنعّم بنجاح فوق العادة منذ أولى لحظات وقوفه أمام الكاميرا تقريباً.

فقد كان أوزمنت في سّن الرابعة عندما أقنع والدته بإشراكه في اختبار لفيلم دعائي عن بيتزا هات. (وربما لم تكن بحاجة لكثير من الإقناع لأن والده كان ممثلاً محترفاً). وفاز هالي بالعمل، ولم يمض وقت طويل حتى حظي بأول أدواره السينمائية حين لعب دور ابن «فورست غامب» في فيلم لقي نجاحاً باهراً من قبل النقاد والجمهور.

وكان من الممكن أن يشكل نوع النجاح الاستثنائي المبكر في الصناعة السينمائية الذي عرفه أوزمنت وصفة لكارثة شخصية. فالشهرة، وتوفر المال، والحياة في الفقّاعة الهوليوودية لا تؤدي دائماً إلى نشأة شخص ناضج متكامل الشخصية. لكن أوزمنت كان، على ما يبدو، مُصّمماً، بمساعدة والديه، على أن يصبح كذلك. وعلى الرغم من أنه يأخذ دروساً خاصة عندما يمثل في فيلم، إلا أنه يتابع الدراسة في المدرسة الثانوية في لوس آنجلس عندما لا يكون مشغولاً بالتصوير. وهو يمارس الرياضة. ويُمضي أوقاتاً مع أصدقائه «الذين لا يأخذون ناحية التمثيل من حياتي على محمل الجد... فهذا الأمر ليس جزءاً كبيراً من صداقتنا». وأوزمنت عضو نشيط في دائرة الدراما بمدرسته الثانوية التي تعمل الآن على إخراج «مشروع لارامي». وهو يعتزم، بعد تخرجه من المدرسة، الالتحاق بالجامعة حيث سيدرس الفن السينمائي، طبعاً، لكنه يعتزم أيضاً دراسة التاريخ والسياسة.

هالي جويل أوزمنت

تسجيل صوتي حول العمل مع الممثلين المشهورين

تسجيل صوتي حول أهم شيء في الحياة

خلال مؤتمر دام لمدة ساعة مع طلاب يتكلمون الإنجليزية من بيلاروس، كانت ثقة أوزمنت وحضوره أمام عدسة الكاميرا متوقعين؛ فهو ممثل، ولكنّ ما لم يكن متوقعاً بالضرورة هو قدرته على شرح فنون المهنة التي كرّس نفسه لها. إنه يعترف بحسن حظه. وهو يقول: «عندما يكون الفن هو عملك فإنك لا تعمل أبداً». والسبب، يواصل أوزمنت، هو أنك تهتم كثيراً بما تفعل. فالتمثيل، كما قال أوزمنت للطلبة في منسك، يعني بأن عليك أن تصبح إنساناً آخر وتقتنع بأنك ذلكَ الإنسان الآخر، «إن أفضل جزء من التمثيل هو تحقيق هذا التحّول إلى شخص آخر. هذا فعلاً هو جوهر التمثيل، إنه الاقتناع بأنك إنسان لست هو». وليس من قبيل الصدفة أن أصعب ما في التمثيل، بالنسبة لأوزمنت، هو الاقتناع «بما تمر به الشخصية التي تمثلها.» وإن نجح المرء في ذلك، إن استطاع إنجاز هذا الأمر، فإنه سيخلق عندها ما يصفه أوزمنت بأنه «واقع بديل.»

وقد تساءل أحد الطلبة عن سبب انطفاء هذا العدد الكثير جداً من الممثلين أو اختفائهم عن ساحة التمثيل بعد بروزهم كممثلين أطفال. ويبدو أن أوزمنت كان مُدركاً لهذا الخطر وأنه حوّله إلى تحد. فهدفه، كما قال، هو مواصلة تحسين أداءه. ففي كل مرة يصوّر فيها شخصية، يحاول جاهداً تقديم أداء أفضل، بانياً على ما فعله في السابق ومُعززاً فنّه بانتقاله من دور إلى آخر. وهو يتطلع، بعد أن لعب عدداً كبيراً من أدوار الأطفال والأحداث، إلى اليوم الذي يصبح فيه قادراً على لعب دور الإنسان «الوغد».

تسجيل صوتي عن فن التمثيل

تسجيل صوتي عن التعامل مع الشهرة

أما بالنسبة للشهرة التي ترافق النجاح في مهنة التمثيل، فقال أوزمنت لمحاوريه في منسك إن على الممثل أولاً وقبل كل شيء، احترام المعجبين به. «فبدون دعم المعجبين، لن تجد عملاً.» غير أنه يعترف أن الشهرة يمكن أن تشكل إلهاء عما هو مهم

فعلاً، أي العمل نفسه، والفن القائم في العمل. وعندما يقول أوزمنت إن المهم في صنع الأفلام هو «العمل أثناء التصوير» فإنه يبدو أنه يعرف ما يتحدث عنه ويعني ما يقوله.

وإن كان هناك شيء اسمه التوازن في الحياة بالنسبة لممثل شهير شاب، يبدو أن هالي جويل أوزمنت على وشك تحقيقه. إن مستقبله سيبقى مرتبطاً بالأفلام بطريقة أو بأخرى. وقد قال إنه سيواصل التمثيل، ولكنه يأمل أن يتمكن من استكشاف جوانب أخرى في صناعة الأفلام، كالكتابة والإخراج، بعد إنهائه دراسته الجامعية. أما في الوقت الحاضر وإلى أن يتحقق ذلك، فإنه سيواصل العمل والدراسة، وعزف موسيقى الروك آند رول مع بعض الأصدقاء. ويبدو، أثناء قيامه بكل ذلك، أنه سيقوم بهذه الأمور بدون أن يصيبه غرور النجاح والشهرة.

مارك جاكوبس

نبذات عن سِير

كولن باول

التغلب على التحديات

عندما يروي كولن باول قصة حياته، فإنه كثيراً ما يصفها بأنها قصة أميركية معتادة عن طفل عادي تغلب على العقبات ليخرج من العتمة إلى الشهرة. إلا أن ما لا يقل وضوحاً عن ذلك هو أن باول رجل استثنائي لعب دوراً هاماً في العديد من الأحداث التاريخية الكبرى في زمننا. ولعل حل عقدة هذه المفارقة الظاهرية يكمن في عدم حلها إطلاقاً، وإنما بالاعتراف بأن مسار حياة باول حكاية أميركية كلاسيكية، وفي نفس الوقت، قصة فريدة لفرد استثنائي.

قال باول في سيرته الذاتية التي وضعها بعنوان «رحلة حياتي الأميركية»: «إن قصتي هي قصة طفل أسود غير واعد من عائلة مهاجرة محدودة الإمكانيات. إنها قصة الخدمة والخدمة في الجندية. إنها قصة الناس الذين ساعدوني لأصبح ما أنا عليه. إنها قصة استفادتي من الفرص التي خلقتها تضحيات الذين جاؤوا قبلي والتي ربما سيستفيد منها الذين سيأتون من بعدي.»

لم ينس باول أبداً الكفاح والفرص اللذين مر بهما في شبابه. وبعد أن ترك المنصب الحكومي أول مرة في التسعينات من القرن الماضي، خدم باول بصفته الرئيس المؤسس لمنظمة «الوعد الأميركي – التحالف في سبيل الشباب». وخصّص، مراراً وتكراراً، خلال أسفاره إلى الخارج بصفته وزيراً للخارجية، الوقت لمقابلة الشباب وللتحدث إليهم حول أحلامهم وحول التحديات التي يواجهونها بصفتهم قادة الجيل القادم.

وقال باول في «مُعسكر بذور السلام العالمي» سنة 2004: «خلال جميع محادثاتي مع الشباب، نتحدث عن العائلة، ونتحدث عن التاريخ، ونتحدث عن الآمال والأحلام، ونتحدث عن المخاوف والشكوك، وخلال جميع تلك المحادثات، نخرج بتقدير أكثر ثراءً لبعضنا البعض كمخلوقات بشرية ... عندما يتبادل الناس أفكارهم ومشاعرهم التي تجعل منهم بشراً، يصبح بإمكان السلام أن يجد فرصة للتجذّر في قلوبهم.»

ولد كولن لوثر باول سنة 1937، وترعرع في ضاحية كيلي ستريت المتنوعة الاثنيات والأديان، في ساوث برونكس بمدينة نيويورك. كان والداه من المهاجرين من جامايكا الذين وضعوا معايير عالية لحياتهم وكانوا يقدّرون قيمة التعليم. غير أن كولن الفتى كان يفتقر، كما يقول هو، إلى التركيز أو الاتجاه. وقد كتب في سيرته الذاتية، «لم أكن بعد قد تفوّقت في أي شيء. كنت «الولد الجيد والشغّيل الجيد،» لا أكثر». لكن ذلك تغيّر عندما دخل باول كلية سيتي كولدج في نيويورك، حيث تخرّج في علم الجيولوجيا، ووجد حرفته ومهنته عندما انضم إلى «فيلق تدريب ضباط الاحتياط» (ROTC). تألق باول في جو الهيكلية العسكرية والانضباطية الملائمة لشخصيته وأصبح قائداً لفريق التدريب الدقيق في الوحدة، وفي 1958، عُيّن مُلازماً ثانياً في الجيش الأميركي.

وقد خدم باول دورتين قتاليتين في فيتنام وأصيب بجروح مرتين أثناء القتال، وقاد لاحقاً قوات في كوريا وألمانيا وفي الولايات المتحدة. ونال درجة ماجستير في إدارة الأعمال كما فاز بمنحة البيت الأبيض الجامعية. وكتب باول بعد ذلك بسنوات: «عندما ترعرعت اخترت الحياة العسكرية. فقدت أصدقاء مقربين جداً في الحرب، وقدت لاحقاً شباناً وشابات خاطروا بحياتهم بملء ارادتهم في سبيل بلدنا، والبعض منهم لم يعد أبداً. ولا يمضي يوم إلا وأفكرّ فيهم».

وفي سنة 1986، وكان باول قد أصبح برتبة فريق (ليوتفانت جنرال)، انضم إلى حكومة الرئيس ريغان؛ وبعد ذلك بسنة، عيّنه رونالد ريغان مستشاراً للأمن القومي في وقت نسق فيه اجتماعات القمة التي غيرت التاريخ مع الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف. وعقب ذلك، خدم باول كرئيس لقيادة الأركان المشتركة تحت رئاسة الرئيس جورج بوش الأب، عندما قادت الولايات المتحدة تحالفاً دولياً لتحرير الكويت من صدام حسين في عملية عاصفة الصحراء. وقد تقاعد باول من الخدمة العسكرية سنة 1993 كأحد أبرز الشخصيات المرموقة في البلاد.

وقد قال باول إن الوحدة السياسية والقوة العسكرية ساعدتا الغرب في احتواء الاتحاد السوفياتي، ولكن قوة الأفكار هي التي أنهت الحرب الباردة وأحلّت الديمقراطية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق. ويقول باول: «قوة الحرية للشعب، قوة حرية الفرد... هاتان قوتان مؤثرتان جداً أعادتا رسم عالم الحرب الباردة ليصبح العالم الذي نعيش فيه الآن ... وأنا أعتقد أنه لا يمكن مقاومة هاتين القوتين.»

قاد كولن باول، بصفته وزيراً للخارجية بين سنة 2001 وسنة 2005، الدبلوماسية الأميركية في زمن تحديات جديدة وأحياناً كثيرة غير مسبوقة: قيادة تحالف عالمي في الحرب ضد الإرهاب، والمساعدة في إقامة الديمقراطيّة الناشئة في أفغانستان والعراق، ومساندة توسّع حلف شمال الأطلسي، والرد على تحديات وباء الأيدز، والعمل من أجل سلام عادل ومُنصف في الشرق الأوسط، وتشجيع نمو فرص الحرية والفرص الاقتصادية عبر العالم.

وقد سار كولن باول، في العديد من النواحي، على خطى رجل دولة عسكري عظيم آخر هو جورج مارشال الذي قاد القوات المسلحة الأميركية خلال الحرب العالمية الثانية، ثم صاغ مشروع مارشال لمساعدة أوروبا في استعادة عافيتها وللمساعدة في كسب السلام من موقعه كوزير للخارجية.

وقد أعلن باول، لدى تلقيه جائزة مؤسسة مارشال سنة 2003: «جورج سي. مارشال هو، بالنسبة لي، بطلي الخاص. إن صورته مُعلقة في مكتبي... عندما أجلس في مكتبي وأعكف على معالجة أكثر المشاكل صعوبة، أتطلع إلى جورج».

تزوج كولن باول من آلما جونسون سنة 1962، ولهما صبي، اسمه مايكل، وابنتان، ليندا وآن، وحفيدان. وقد أصبح المنفذ المفضل لديه منذ السبعينات من القرن الماضي للهروب من ضغوط العمل هو القيام بتصليح سيارات الفولفو القديمة الطراز. فكما قال باول لطلاب في مدرسة ببرلين مؤخراً: «بالنسبة لي، كان العمل على سياراتي نوع من الاسترخاء لأنه خلافاً للمشاكل السياسية، عندما لا يعمل محرك سيارتي، أستطيع التوصل إلى السبب بسرعة.»

وقد أعرب كولن باول عن تقديره للقيم الدائمة التي حددت معالم حياته خلال ملاحظات أدلى بها أمام المؤسسة القومية الأميركية الإيطالية إذ قال: «حيثما أذهب في العالم، أحمل في نفسي بعمق ذلك الولد الصغير من كيلي ستريت- روح أميركا موحّدة في تنوعها، مرحبة بالجميع في إنسانيتها، وغنية جداً بإمكانياتها. لقد كانت هذه الروح الديمقراطية دائماً أعظم قوة لبلدنا، وهي لا تزال أعظم أمل لدينا... ولا تزال تلك الروح الكريمة أعظم هباتنا للعالم.»

هوارد سينكوتا

نبذات عن سِير

كرايغ سافّو

تحقيق حلمٍ

يترعرع العديد من الأطفال الأميركيين على حب الحيوانات ويحلمون بالعمل معها يوماً ما. إلا أن كرايغ سافّو، من فولز تشيرتش بولاية فرجينيا، هو أحد المحظوظين القلائل الذين حوّلوا أحلام الطفولة هذه إلى مهنة مدهشة ومجزية. والواقع هو أنه شغل وظيفة واحدة في حياته، هي العناية بالفهود في حديقة الحيوانات بواشنطن العاصمة. وقد أصبح الآن، وهو في الثلاثين من العمر، رئيس المسؤولين عن الاعتناء بالفهود، مما يعني إدارة أمور تسعة من السنّوريات المعرضّة للانقراض (بما فيها أربعة صغار ولدت مؤخراً)، والإشراف على ثلاثة موظفين.

ترعرع كرايغ في فايتفيل بولاية نورث كارولاينا، وكان أبوه، كارل سافّو، ضابط محترف في الجيش توفي عندما كان كرايغ في السادسة من العمر. فتربّى كرايغ وشقيقتاه الأكبر سناً على يد والدتهم، وهي معلمة مدرسة. ويستطيع كرايغ، الأميركي-الأفريقي، تتبع جذور عائلته إلى أوروبا أيضا: والدة جدة أمه جاءت إلى الولايات من النروج في بداية القرن التاسع عشر.

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، تسجّل كرايغ في برنامج علوم الحيوان في جامعة ولاية نورث كارولاينا وفي نيته أن يصبح طبيباً بيطرياً. يتذكر كرايغ: «ساعدني مرشد في الكلية في الإدراك أنني مُهتم بسلوك الحيوانات أكثر من اهتمامي بطب الحيوانات وفتح عيني على فكرة العمل في حديقة للحيوانات». تقدم كرايغ، بتشجيع من أستاذه، بطلب، وحصل على عمل كمتدرب مع إقامة في حديقة الحيوانات القومية، التي كانت قد افتتحت مؤخراً فرعاً جديداً للفهود. وكان كرايغ قد وصف اهتمامه بالفهود بصورة ملفتة للانتباه لدرجة أن القيّم على الحديقة كلّفه العمل مع عالم البيولوجيا المختص بالفهود. ويقول كرايغ:»كان ذلك مدخلي إلى الفهود، ومنذ اليوم الأول، وقعت في حبها.»

وتتعدى تحديات إدارة حياة هذه السنّوريات الجميلة، أسرع الحيوانات البرية على وجه الأرض، العناية المألوفة والإطعام إلى حد كبير. ويوضح كرايغ ذلك بالقول: «لديها قابلية كبيرة للإصابة بالأمراض التي يمكن أن تعرض حياتها للموت عملياً في ظرف أسبوع أو أسبوعين. ولذلك نقوم بوزنها مرة في الأسبوع بدلاً من مرة في الشهر مثل باقي الحيوانات، ونوجه عناية خاصة إلى كمية المياه التي يشربها كل فهد، والى كمية ما يأكله يومياً. إنها حيوانات تتطلب الكثير من العمل. ومن الصعب جداً أن تلد الفهود في حدائق الحيوانات لذلك نبقى على اتصال دائم بالحدائق الأخرى حول العالم ونقارن الملاحظات حول استراتيجيات الاستيلاد.»

يحب كرايغ وظيفته «لأنني أشعر أنني أحقق أمراً مهماً عندما أعلّم الناس هنا في الولايات المتحدة عن الفهود والمشاكل التي تواجهها في البراري، كما أنه من الصعب أيضاً أن تواجه يوماً سيئاً عندما تعمل مع حيوانات جميلة كهذه.»

حرية اختيار الإنسان لسبيله في الحياة هي صيغة كرايغ للحلم الأميركي: «إن المال الكثير ليس شيئاً أحتاجه شخصياً للشعور بالسعادة. أريد أن أكون قادراً على الذهاب إلى عملي كل يوم والاستمتاع به.» وكرايغ غير متزوج ويقول إنه يعيش حياةً بسيطة دون تبذير، مضيفا: «لكن ذلك خيار اتخذته وليس شيئاً أُجبرتُ على عمله. فأميركا أحد الأماكن القليلة التي يستطيع فيها الإنسان اختيار مصيره، وأنا أُقدّر كوني منحتُ تلك الفرصة.»

أهم التأثيرات التي أرشدت كرايغ في حياته هي «ذكرياتي عن والدي والمثال الأعلى الذي أعتقد أنه كان يمثله. فأنا أريد، على غرار والدي الذي كان يحظى باحترام كبير من جانب زملائه الجنود، أن أكون محترماً من قِبَل العاملين معي، وفي ميدان علم الحيوان، ليس كمجرد مربي حيوانات، بل كشخص هو خبير فهود حقيقي.»

ويقول كرايغ إنه يستوحي إرشاداته الأخلاقية من تربية والدته ومن الصورة التي كونها عن والده. ويوضح ذلك بالقول: «عندما يواجهني قرار أخلاقي، أفكّر عادة بما كان سيفعله كارل سافّو فيما لو كان في وضع مماثل». وتدخل القيم الروحية هي أيضاً في اللعبة. ويقول كرايغ: «أمضيت وقتاً طويلاً في التمعن في الديانات الأخرى وأحاول أخذ ما أوافق عليه من كل واحدة منها واتخاذ القرارات القائمة على شعوري بأن أي إله سينظر اليّ سوف يعتبر أنني فعلت الشيء الصحيح.»

ومع أن كرايغ لا يزال شاباً، إلا أنه يرى بعض التغيّرات الهامة في أميركا منذ أن كان طفلاً. لقد ولى، يقول كرايغ، الخوف

الشديد من احتمال نشوب حرب نووية شاملة الذي يتذكر وجوده في بداية الثمانينات من القرن الماضي. وهو يعتقد أيضاً بوجود مساواة أكثر في الحياة الأميركية الآن، داخل الأُسر، حيث يشترك الوالدان في كسب المعيشة وفي تربية الأولاد، وفي العلاقات بين السود والبيض.

وهو يقول عن ذلك:»قليل من الناس من عمري تربوا على فكرة وجوب الفصل بين الأعراق. وأنا أشعر أنني أُقبل أكثر بكثير مما يُسخر مني بسبب لون بشرتي، وأظن أننا قطعنا شوطاً بعيداً في كيفية معاملتنا لبعضنا البعض.»

ويأمل كرايغ، إذا أصبح والداً يوما ما، أن يعلم أولاده أهمية التسامح، «ليس إزاء الأشخاص الذين هم من خلفيات إثنية أو دينية أخرى وحسب، بل وأيضاً إزاء الذين يفكرون بطريقة مختلفة. سوف أنصح (الأطفال) بأن اتباعهم التسامح والتواضع سيجعل عدداً أكبر من الناس يحترمهم طوال حياتهم.»

فيليس ماكنتوش

نبذات عن سِير

رينيا سلاتير

صناعة التاريخ

أطلقت عينيها صوب اللوحة البرونزية في ردهة الكنيسة: إنها تحتوي على عامودين ونصف من الأسماء، 99 إسماً، جميعها من رعاة كنيسة القديس يوحنا الميثودية المتحدة منذ تأسيسها في أوغسطا بولاية جيورجيا سنة 1798. كانت رينيا تعرف عدداً كبيراً من تلك الأسماء، فهم رجال لعبوا دوراً متميزاً في تاريخ الميثودية الجنوبية. أصبح خمسة منهم أساقفة. والحقيقة هي أن أحد هؤلاء الأساقفة سبّب انفصال الميثوديين الجنوبيين عن إخوانهم الشماليين سنة 1844؛ فقد ورثت زوجته عبداً أسوداً، ولم يستطع الميثوديون الشماليون تحمل أو تقبل أسقف يملك عبيداً. وهكذا كان أحد الرعاة السابقين لكنيسة القديس يوحنا سبباً للانشقاق الكنسي الذي مثل سابقة أنذرت بالانشقاق الأميركي الدامي، الحرب الأهلية، قبل 17 سنة من وقوعه.

والآن، وبعد مرور 160 عاماً، في حزيران/يونيو 2004، سيضاف اسمها إلى اللوحة: رينيا سلايتر. وعندما وقفت رينيا لأول مرة في حرم الكنيسة، بصفتها الراعي رقم مئة لكنيسة القديس يوحنا، تنظر إلى النوافذ الزجاجية الملونة التي يبلغ عمرها مئة عام، وإلى صفوف المقاعد الطويلة وإلى المقاعد الجانبية حيث تعبدّت الأجيال وعاصرت أحداث التاريخ، كانت بوقفتها تلك تصنع التاريخ. فالقس رينيا سلايتر ليست أول راعية أنثى لكنيسة القديس يوحنا فحسب، بل هي أيضاً أول أميركية أفريقية ترأس هذه الرعية المؤلفة من 600 عضو غالبيتهم الساحقة من البيض.

لقد حققت رينيا تقدماً كبيراً منذ ولادتها قبل ستين سنة في مزرعة من ثماني هكتارات في لويزيانا التي كانت تتبع آنذاك الفصل العنصري بين البيض والسود. وهي تتذكر تلك الفترة بالقول: « عندما كنت في السادسة عشرة، كان بوسعي الاتصال «بالأنغلو»، الاسم الذي كنا نطلقه على الناس البيض، فقط على مستوى الأعمال التجارية. لم يكن ثمة مجال للتقارب بيننا. ما كان بوسعك رفع نظرك إليهم. وكنت أفكر وأنا فتاة صغيرة «لا أحب ذلك»، لكن تلك كانت طريقة الحياة الأميركية. وأذكر أنه لم يكن يحق لنا، خلال رحلة في الأوتوبيس، استخدام نفس قاعة الانتظار (التي كان يستعملها المسافرون البيض) لكنني لم أشعر أبداً أنني أقل من أي كان، إذ كان هذا الأمر ضد روحي.»

رغم هذا، أحبت رينيا الحياة في المزرعة في شايدي غروف بولاية لويزيانا حيث ترعرعت بين سبعة أشقاء وشقيقات، وبين البقر والدجاج والبط والخنازير والمحاصيل المزروعة التي كانت تؤمن ما يقدم على مائدة الطعام، وبين أم وأب علماهم حب كل إنسان. وتروي رينيا عن تلك الفترة: «لم نكن نشتري الكثير من الحانوت حتى أننا زرعنا قصب السكر لانتاج الشراب السكري وكنا نطحن الذرة ونحوله إلى طحين. وعندما ينضج البطيخ، كنا نذهب الى الحقل ونأخذه ونشقّه ونأكل منه القلب فقط لأن القلب كان الجزء الأفضل». وكان القطن هو المحصول الوحيد الذي لم تكن تحبه. وهي تقول: «كان علينا أن ننكش حقول القطن وكان علينا قطفه؛ كنا نحمل تلك الأكياس الطويلة التي تتسع لحوالى 50 باوندا (22 كيلو). كان عليك أن تقطف ذلك القطن وتجرح يديك بسبب الغلاف الشائك الذي يحتوي القطن.»

علاوة على الزراعة، كان والدها يعمل في معمل لنشر الخشب وبواب في مدرسة. وأثناء وجود والدها في المنشرة، كانت رينيا وإخوتها وأخواتها ينظفون المدرسة التي كانت تقع في آخر الطريق الى المزرعة. وكانت والدتهم تعمل هي أيضاً في المدرسة، كطباخة. وتتذكر رينيا: «عندما كانت إحدى البنات تبلغ سناً معينة، كانت تتعلم الطبخ للعائلة، وبعد أن كبرت البنات، تعلم الصبيان ذلك. وكانت والدتي تقول: «هذا ما أقوم به لنعتاش، ولكنني لا أريد ان أقوم به في البيت.»

ولأن والد ووالدة رينيا لم ينهيا الدراسة الثانوية، أصراً على أن يفعل أولادهما ذلك. وتقول رينيا: «كان هذا حلمهما بالنسبة لنا. أما إن كان لدى أي منا حلم أبعد من ذلك، فيمكننا السعي لتحقيقه، ولكن على مسؤوليتنا الخاصة بعد المرحلة الثانوية.»

وكان حلم رينيا التدريس. وهي تقول: «كنت في مدارس منفصلة عرقياً، إلى أن دخلت الجامعة في أواسط الستينات من القرن الماضي، لكنني كنت أعلم أنه يمكنني أن أصبح ما أرغب به لأن أساتذتي علمونا ذلك. صحيح أن عالمنا كان محدوداً في أميركا آنذاك ولم تكن لدينا رؤيا أوسع عن جميع الإمكانات المتعددة، لكن كان بالإمكان، رغم ذلك، وضمن هذا المنظور الضيق، الاعتقاد بأن بإمكانك أن تكون ما تريد أن تكون». ذهبت رينيا الى الجامعة لكنها تزوجت وهي في العشرين من عمرها قبل أن

تتخرج وأنجبت. وقد أبطأت تربية ثلاثة أطفال تقدمها لكنها لم تبطئ عزيمتها. وقد حصلت على شهادة البكالوريوس خلال ثماني سنوات، ثم نالت شهادة الماجستير وأمضت عشرين سنة تعلم الأطفال من كل الأعراق.

وجدت رينيا نفسها أسيرة زواج برجل يطالب بالخضوع، فقبلت سلطته وكبتت أحلامها. ثم بدأت تقرأ الكتاب المقدس، الكتاب نفسه الذي كان زوجها يستشهد به كمرجع لمطالبتها بالخضوع لمشيئته. ووجدت، لدهشتها، أنه في الحقيقة كتاب حول التحرر. وهي تقول: «خلقنا الله لتحررنا، وليس من الواجب علينا التقيد بالقانون إن كان يدمرنا.» و كانت تلك نفس رسالة التحرير التي كان يبشر بها القس مارتن لوثر كينغ جونيور في شوارع الجنوب آنذاك. إلا أنه كان على رينيا أن تكتشفها في بيتها.

وبعد انتهاء زواجها الذي استمر تسعة عشر عاما، بدأت رينيا تسمع صوتاً: «أريدك أن تُبشري بإنجيلي. أريدك أن تقومي بخدمة رعيّتي». وتقول رينيا إن ذلك كان غير معقول، ذلك أنه لم يسبق لها أن عرفت امرأة تعمل كقس، ووالداها المعمدانيان لن يوافقا؛ كما أنه لا توجد كنائس كثيرة تقبل امرأة قسيسة. لكن الصوت كان يعود كل ليلة. «كما لو أن شاشة تلفزيون كانت تنفتح في كياني وينطلق منها ذلك الصوت، وعرفت أنه الله.» وهكذا التحقت رينيا وهي في الخامسة والأربعين من عمرها بمدرسة كاندلر اللاهوتية بجامعة إيموري. وبعد ثلاث سنوات، في 1992، رُسمت قسيسة ميثودية. وكانت كنيسة القديس يوحنا رابع كنيسة تعيّن فيها.

عندما دخلت رينيا المعهد اللاهوتي، سمعت الصوت من جديد: «إذا ذهبت، سأفتح الأبواب أمامك، ولن تحتاجي بعد الآن أبداً لأن تحطميها.» وتقول رينيا إن الله وفى بذلك الوعد، وتضيف «لم أحتج في أي وقت من الأوقات إلى تحطيم الأبواب لأدخل.» ثم تضحك القس رقم مئة لكنيسة القديس يوحنا: «هذا لا يعني انه عندما أدخل تلك الأبواب، لا أجد هناك الكثير من التحديات!»

وتعرف رينيا أن هناك في كنيسة القديس يوحنا من لم يُرّحب بتعيينها. لكن ما دامت قد عبرت البوابة، فإنها تؤمن أكثر من أي وقت مضى بالرسالة التي أعطيت اليها: «ليس عندي سوى الأخبار السارة لأقولها للناس، وكيف أن الله يستطيع تغيير عالم الإنسان.»

جيمس غارفي

نبذات عن سير

دبليو. ريتشارد وست

تحقيق توازن ديناميكي

يتمتع مدير المتحف القومي للهندي الأميركي بنظرة رحبة وشاملة حول الديمقراطية في أميركا. قال دبليو. ريتشارد وست في مقابلة، مشيراً إلى الأميركيين الأصليين، «نريد أن نكون جزءاً من هذه التعددية الكبرى التي هي حقاً الولايات المتحدة. كان هذا في الماضي وسوف يستمر في المستقبل. أظن أن أحد أهم دروس الديمقراطية الأميركية هو أنها سمحت لنا بمرور الزمن بهذه التعددية الثقافية الكبرى لنعيش ونكبر معاً في الولايات المتحدة. هذا هو فعلاً جمال الديمقراطية الأميركية، كما أن السكان الأصليين أنفسهم متفانون في خدمة تلك الرؤيا.»

وهي رؤيا وجهّت مقاربة وست لقيادة ما هو اليوم أحد أهم المشاريع الثقافية الجماعية في البلاد في السنوات الأخيرة، إقامة المتحف القومي للهندي الأميركي (NMAI). ويحتل المتحف الآن مكاناً مرموقاً في المرج المعروف باسم «المول» بواشنطن العاصمة، قرب مبنى الكابيتول (حيث الكونغرس الأميركي)، جاذباً الزوار من الولايات المتحدة ومن حول العالم.

لقد كرّس وست، وهو مواطن من قبيلتي شايين وآراباهو في أوكلاهوما، ورئيس سلام لقبيلة في شايين الجنوبية، حياته المهنية والشخصية للعمل مع الهنود الأميركيين. وقد ترعرع وست في ماسكوجي، بولاية أوكلاهوما، وهو ابن الفنان البارع الهندي الأميركي الراحل، ريتشارد وست (سينيور). ومع أن وست قرر دراسة الحقوق في نهاية المطاف، إلا أنه يعيد الفضل في الخيارات المهنية التي اتخذها إلى اهتمامه طيلة حياته بتاريخ الهنود الأميركيين.

وعندما طُلب من وست أن يوضح ما يعنيه «الحلم الأميركي» بالنسبة له، وصف نوعاً من التوازن الديناميكي بين الحقوق الخاصة بالهوية الفردية وبين العضوية في مجتمع أوسع. ويلاحظ أن «هناك خمسمائة وأربعة وستين قبيلة تعترف بها الحكومة الفدرالية في الولايات المتحدة. فالقدرة على احتلال مساحة ثقافية في الولايات المتحدة أمر مهمّ جداً بالنسبة لنا. ورغم هذا، ندرك أيضاً أننا جزء من كيان سياسي كبير يدعى الولايات المتحدة الأميركية ونحن جدّ ملتزمين بذلك الكيان.»

كيف يبدو هذا على أرض الواقع؟ يقول وست، «على أساس النسبة المئوية، يتطوع السكان الأصليون في الولايات المتحدة في الخدمة العسكرية للدفاع عن البلاد بمعدلات أعلى من قطاعات السكان الأخرى. هناك إذاً، كما ترون، هذا الالتزام الرائع بالولايات المتحدة، لكنه في الوقت نفسه التزام بمجتمعاتنا الثقافية الخاصة». ففي حين يعتبر وست أن هويته كأحد أعضاء قبيلة شايين الجنوبية «مهمة جداً جداً، أعتبر أيضاً أن كوني مواطناً من مواطني الولايات المتحدة يحقق لي ذاتي بنفس القدر.»

وقد حمل مدير المتحف القومي للهندي الأميركي رؤيته حول المشاركة والتعددية معه إلى المهمة الصعبة المتمثلة بتوجيه إنشاء المرافق الثلاثة التي تشكل المتحف القومي للهندي الأميركي. فأشرف وست على إنشاء مركز جورج غوستاف هاي، وهو مرفق للمعارض والتثقيف في مدينة نيويورك، كما أشرف على التخطيط لمركز الموارد الثقافية الذي يضم مجموعة المتحف القومي للهندي الأميركي المؤلفة من ثمانمائة ألف قطعة، في سويتلاند بولاية ميريلاند. كما أشرف وست على التخطيط الهندسي المعماري والتخطيط لبرنامج المتحف في مرج واشنطن العاصمة، وهو المتحف الذي فتح أبوابه في أيلول / سبتمبر 2004.

ومنذ وصوله إلى منصبه سنة 1990، كان واضحاً لوست أن هذا برنامج ذو مغزى اجتماعي وسياسي كبير بالنسبة للبلاد، واتخذ الخطوات للتأكد من أن تطوره سوف يعكس الآمال التي وضعها فيه العديد من الأميركيين؛ وأتاح وست، بتأخيره موعد بناء المتحف سنتين، لمخططي المتحف التشاور مع مجتمعات الشعوب الأصلية المعاصرة في جميع أنحاء الأميركتين. واستضاف المتحف في الفترة الممتدة بين عامي 1991 و 1993، أكثر من عشرين اجتماعاً استشارياً حضرها مئات من الأشخاص. وقد أثرت نتائج مشاركتهم تأثيراً كبيراً على تصميم المتاحف والبرامج التي تقوم بها.

يقول وست إن الشعوب الأصلية لا تريد أن يُنظر إليها على أنها «آثار ثقافية» من الماضي بل «كشعوب وثقافات لها تاريخ عميق وهي اليوم حيّة جداً.» كما أنها تريد «فرصة مخاطبة الجماهير

مباشرة من خلال برامج المتحف وعروضه ومعارضه؛ وتريد أن تعبر بصوتها هي ومن خلال منظورها هي، عن معنى القطع الموجودة في مجموعاتنا وأهميتها في فن وثقافة وتاريخ السكان الأصليين».

وكانت النتيجة النهائية لهذا التعاون بكل نية صافية إنشاء تصميم هندسي معماري يعكس قيم وتجارب الشعوب الأصلية. فكما كتب وست: «أعتقد... استناداً إلى تربيتي الخاصة وتجاربي الحياتية بصفتي من قبيلة شايين، أن نظرة السكان الأصليين إلى العالم، إلى الواقع، إلى النظرية الكونية، تختلف كثيراً عن نظرة الذين ترعرعوا ضمن التجربة الثقافية الأميركية الأوروبية إليها، وأن لتلك الفوارق تأثيراً عميقاً على معنى وتفسير ملايين القطع الموجودة في مجموعة المتحف القومي للهندي الأميركي.» ويمكن لكل من يزور المتحف أن يشهد على دقة هذه الملاحظة. فالمتحف القومي للهندي الأميركي هو بمثابة شهادة حية على قوة الديمقراطية العاملة فعلاً.

مارك جاكوبس

نبذات عن سير

راي كيونغ وديان يونغ باركر

مواجهة التحديات اليومية

يقول راي يونغ،»كل يوم هو فرصة جديدة بالنسبة لنا لإعداد أنفسنا لخدمة الزبائن». ويمثل راي، 39 عاماً، وشقيقته، ديان يونغ باركر، 45 عاماً، الجيل الرابع من عائلة يونغ الذي يدير مطعم «يونغز لوبستر باوند» الذائع الصيت في بلفاست بولاية ماين. فقد بدأ جدّاهما، باد وبيل يونغ، اللذان ترجع أصولهما إلى ألمانيا، هذا العمل قبل 75 سنة، وغرسا في عائلتهما أخلاقيات العمل القوية. يقول راي، «عملنا في محلات البقالة وجرفنا الثلوج وقطعنا الأخشاب. وعندما كسبنا ما يكفي من المال، تمكنا من شراء الدراجة الهوائية، وليس قبل ذلك.»

ويبدو مطعم يونغز لوبستر باوند، الذي يقع على شاطئ خليج بنوبسكوت، وكأنه مستودع أحمر للبضائع أكثر مما يبدو كمطعم؛ ويدخله الزبائن من موقف السيارات عبر الجهة المفتوحة من البناء إلى المطبخ حيث يطلبون ما يشاؤون. ويمكن للمرء رؤية راي وديان وأعضاء الأسرة الآخرين وراء نضد كبير من الفولاذ الذي لا يصدأ وهم يسجلون الطلبات ويزنون الكركند. وقد وضع وعاءان ضخمان من الفولاذ الذي لا يصدأ (نفس الوعاءين اللذين استخدمها جدّاهما) فوق موقد مغطى بالقرميد الأحمر. وتغلي المياه بقوة في الوعاءين بحيث تكاد الأغطية أن تعجز عن احتواء البخار. وعندما يتم تلقي الطلب، يسحب الكركند من صهريج ويتم زنه ووضعه في مِرجل المياه الغالية لبضع دقائق لطبخه.

يوجد مقابل المطبخ، «فندق» متعدد الصهاريج حيث يوضع الكركند عندما يحضره صيادو الكركند. وقد وزع الكركند حسب الحجم في الصهاريج الملأى بالماء الذي يضخ مباشرة من خليج بنوبسكوت حيث يتم اصطياد معظم الكركند. ويشرح راي أهمية ذلك بالقول: «طالما ظل الكركند يحصل على العوالق من المياه الطبيعية، فإنه يستطيع أن يعيش في الصهاريج طوال عمره.»

وعندما يتم إعداد ما تم طلبه، يأخذ الزبائن ما طلبوه من الكركند، والمحار، والقريدس، والشودر (حساء السمك) ويخنة الكركند، والذرة، وسلطة الملفوف إلى طاولات النزهات (في الهواء الطلق) على الشرفة الخلفية للمبنى المطلة على المياه. أما إذا كان الطقس بارداً أو ممطراً، فيستطيع الزبائن استخدام الطاولات الداخلية في الطبقة الثانية. وهناك، يمكن العثور على بنات راي وأبناء عمومتهم وخالاتهم ينظفون الطاولات ويتحدثون مع الزبائن.

ويستقبل مطعم لوبستر باوند الزبائن طيلة أيام السنة لكن الصيف هو الموسم الذي يشهد أكبر إقبال على المطعم. وفي الرابع من تموز / يوليو، عيد استقلال أميركا، يبدأ الناس الوقوف في صفوف منذ الساعة الثامنة صباحاً للحصول على ما يريدونه وأخذه معهم لاحتفالات العيد. وتقول ديان:»ليست لدينا فكرة عن عدد الناس الذين نخدمهم، ولو عرفنا عددهم لَروّعنا الأمر». وفي حين تستعين أسرة يونغ بالعمال الإضافيين خلال موسم الصيف إلا أنها تجد أن بعض الناس لا يفهمون العمل الشاق كما يفهمه آل يونغ. هذه إحدى الأمور التي تغيّرت منذ أن كانت ديان وراي شابين صغيرين. ونصيحة راي للشباب بسيطة: «ما من شيء يأتي بسهولة. فعندما تعملون بجهد وكدّ لأجل بلوغ أهدافكم، سوف تقدّرون ما تحصلون عليه».

ويفاخر آل يونغ بقيامهم بما هو غير متوقع منهم لزبائنهم. ويتذكر راي: «فتحنا مرة المطعم الساعة الواحدة ليلاً كي يتمكن سائقو حلبة السباق المحليون من الاحتفال بفوزهم بإقامة حفل عشاء من الكركند». وفي حال كان أحد أفراد عائلات الزبائن لا يحب ثمار البحر، يقوم راي وديان بطلب بيتزا من مطعم آخر ويأتيان بها ويقدمانها لطاولة الزبائن في لوبستر باوند كي يستمتع كل واحد من أفراد العائلة بالطعام. ويقول راي: «لقد قمنا حتى بتسخين زجاجةحليب طفل رضيع.»

يرحب كل من راي وديان بالزبائن ويأخذون الطلبات. وعلاوة على ذلك، تحضر ديان يخنة السمك، والشودر (حساء السمك)، وتوضّب اللحم الذي يستخرج من الكركند لشحنه إلى الزبائن التجار. أما راي فهو المسؤول عن لقاء الصيادين وعن شراء الكركند. وهذا يوفّر له أيضاً فرصة البقاء قريباً مما كان سابقاً عمله المفضل.

«كنت أحب كوني صياد كركند»، يقول راي الذي بدأ في المصلحة مع فخ واحد للكركند ومركب عندما كان لا يزال في السادسة من العمر. وما أن أصبح في العشرينات،حتى كان عددها قد وصل إلى 150 فخاً ومركباً أكبر بكثير. ويعترف راي: «أفتقد الخروج في

مركب لصيد الكركند». كل يوم يمثل تحد. هناك دائماً مفاجآت ولا يعرف المرء ماذا سيجد في الفخ قبلً رفعه من الماء».

راي يونغ وشقيقته ديان يونغ باركر

تعتقد ديان أن الحلم الأميركي هو الحياة التي يعيشانها. قالت: «ترعرعنا ونحن نعرف أهمية العمل، والنزاهة، والقيم الحَسَنة، وسنحت لنا فرصة تربية أولادنا بنفس الطريقة. فعمل الشيء الصحيح، والشيء النزيه يجب أن يكون جزءاً من الإنسان. إنها بالنسبة لنا، غريزة جاءتنا من ذوينا.»

وخلال شهري آذار /مارس ونيسان /إبريل، الوقت الهادئ في لوبستر باوند، يأخذ راي وديان أولادهما في رحلات إلى باقي أنحاء العالم بما في ذلك أميركا الجنوبية وأستراليا. وهذا شيء لم يكن بوسع الأجيال السابقة لأسرة يونغ القيام به. وهما يقولان:»لقد دأب والدانا وأجدادنا على العمل الشاق و»حرموا أنفسهم» لجعل المصلحة قوية كما هي اليوم. ومن واجبنا تجاههم أن ندأب على العمل الشاق بالقدر الذي نستطيعه من أجل الجيل القادم.»

كاثي لكتايغ ماكوفسكي

«من الكثرة واحد»، ما زال ذلك صحيحا؟ نعم

ألان وولف

يقول الكاتب إن «أهمية مسألة الوحدة الأميركية توازي أهمية أي مسألة غيرها يواجهها الأميركيون حالياً.» وهو يرى أنه رغم تقارير وسائل الإعلام والتعليقات حول انقسام أميركا، لدى الأميركيين ما يوحدهم، من خلال تقاليدهم وقيمهم،أكثر بكثير مما يفرقهم. إنهم يتذكرون انقساماتهم المؤذية وتفرقهم خلال حربهم الأهلية في القرن التاسع عشر، وكذلك بعض المواجهات العنيفة بين الفئات الدينية في بداية القرن العشرين. وأياً تكن الخلافات السياسية والدينية والاجتماعية القائمة اليوم، فإنها لا تقارب في عمقها عمق تلك الأحداث. ويخلص الكاتب إلى القول إن «الواقع هو أن الأسباب المتوفرة تدعونا إلى الاعتقاد أن انقسام الآراء الذي شهده الأميركيون سنة 2004 ربما سيسبّب ظهور حركات مضادة تقصد تذكير الأميركيين بأنهم، ورغم كل خلافاتهم السياسية، يتشاركون في نفس الجنسية القومية.»

لقد جادلت قبل عدة سنوات، في كتابي «دولة واحدة، رغم كل شيء»، أنه على الرغم من تقارير وسائل الإعلام حول انقسامات في المجتمع الأميركي، فإن ما يربطنا ببعضنا البعض كبلد واحد يفوق مما يفرّق بيننا بكثير. أجل، أعترف أن هناك خلافات في الرأي حول عدد من القضايا السياسية والاجتماعية التي تواجه الشعب الأميركي. (وقد كانت دائماً موجودة). لكن قيم الخصوصية الفردية والتعبير الذاتي التي نتمسك بها تُشكّل قوى جاذبية قوية تدفع الأميركيين دوماً ليبقوا موحدّين. وهذه القيم أقوى بكثير من القضايا اليومية التي تستقطب الآراء في فئتين متقابلتين وتنفرنا أحياناً من بعضنا بعضا.

فئات الانقسام

عند النظر إلى الحملتين الأخيرتين في الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة اعتبر العديد من النقّاد والصحفيين والمراقبين السياسيين أن البلاد تبدو منقسمة بعمق. وقد انتهت انتخابات سنة 2000 عملياً بالتعادل مع حصول كل من المرشحين على عدد متاسو تقريباً من أصوات الهيئة الانتخابية. وفي سنة 2004، حصّل الرئيس جورج بوش على أكثرية واضحة من الأصوات الشعبية ومن أصوات الهيئة الانتخابية. (حصل الرئيس على حوالي 3,4 مليون صوت شعبي أكثر من السناتور جون كيري، أي بهامش تفوق بلغ 2,8 بالمئة كما حصل على 286 صوتاً من أصوات الهيئة الانتخابية مقابل 252). ومع هذا، لم تتغير خريطة البلاد السياسية سوى قليلاً نسبياً بين الحملتين الانتخابيتين؛ إذ لا يزال هناك ولايات «زرقاء» على طول السواحل تميل إلى الاتجاه الليبرالي، وولايات «حمراء» في الجنوب والغرب ذات ميول محافظة أكثر.

تميزت السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين بوجود فوارق أميركية مستمرة في مجموعة متنوعة من الميادين، بما فيها الدين، والعرق، والجنس، والجغرافيا، والنظرة الشمولية إلى العالم. وفي حين اختفت الخلافات اللاهوتية العلنية بين الأديان في الحياة العامة الأميركية تماماً تقريباً، بقي النقاش قائماً ضمن تقاليد كل دين حول قضايا اجتماعية والانطباعات الموجودة عن العالم الخارجي. وفي حين كان الانقسام الأساسي العرقي في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى بين السود والبيض، نرى اليوم عدداً متزايداً من السكان الأميركيين الآسيويين والمتحدرين من دول ناطقة بالإسبانية، وكذلك أعداداً ذات شأن من الناس الذين يُعرفّون عن أنفسهم على أنهم متعددو الأعراق، ولا يعتبرون أنهم ينتمون إلى فئة عرقية واحدة. وينظر كل من الرجال والنساء أيضاً أحياناً كثيرة إلى العالم بصورة مختلفة، وهكذا

يقوم المرشحون للمناصب السياسية بتكييف شكل رسالتهم لاجتذاب هذا الجانب أو ذاك مما يسمى في العادة بالفجوة الجنسية (جندر غاب).

ربما لم تعد الفوارق الجغرافية بارزة كما كانت خلال الحرب الأهلية، لكنها لا زالت قائمة، كما تؤكد نتائج الانتخابات الأميركية. فمعظم أهالي تكساس (الذين صوتوا للرئيس بوش بنسبة 61 بالمئة مقابل 38 بالمئة) لديهم وجهات نظر سياسية تختلف عن وجهات نظر معظم سكان رود آيلاند (الذين صوتوا لكيري بنسبة 59 بالمئة مقابل 39 بالمئة). إن نقل وظائف عمال المصانع إلى خارج البلاد، وتقلص وتراجع المجتمعات الزراعية، وكذلك نمو قطاع الخدمات والتطور السريع لضواحي المدن كلها تشهد على استمرار الفوارق الاقتصادية. ففي حين يكافح بعض الأميركيين للبقاء على قيد الحياة ينعم آخرون بأفضل ما يقدّمه لهم مجتمع ميسور ومنتج. ومن الواضح أن هناك عدة «أميركات» في أميركا اليوم.

ويتفق عدد لا يستهان به من العلماء في النظرة إلى الولايات المتحدة على أنها بلد مُنقسم بعمق. ربما كانت أفصح معبرة عن هذه النظرة، المؤرخة الشهيرة جرترود هيملفارب. وهي تجادل في كتابها «دولة واحدة، ثقافتان» (1999)، أن الأميركيين لا يزالون يعيشون عواقب الانقسام الثقافي الذي ظهر لأول مرة في الستينات من القرن الماضي. وهي تقول إن إحدى هاتين الثقافتين الأميركيتين تُقدّر الحرية الفردية والتعبير الذاتي وتريد أن تتجاوز الأدوار الاجتماعية التقليدية التي كانت سائدة أكثر في المجتمع الأميركي في النصف الأول من القرن العشرين. أما الثقافة الأخرى فتركز على أهمية السلطة وعلى احترام القواعد والتقاليد، وتريد رؤية العودة إلى عصر كان للأهالي فيه رقابة أكبر على أولادهم، وكان عدد أكبر من الناس يفخر ببلده وصادقاً في تقواه الدينية. وتنتمي هيملفارب المحافظة بوضوح إلى الثقافة الثانية. إلا أنه يمكن أن يعثر المرء على حجج مماثلة لدى كتّاب اليسار الذين يشعرون أن قيماً متحررة كالعلمانية والتعبير الذاتي مُهدّدة من قبل اليمين، والذين يسعون إلى الدفاع قدر الإمكان عن مكاسب الستينات من القرن الماضي.

كانت هيملفارب، إلى حد ما، كما يوحي بذلك عنوان كتابها، تردّ على مساهمتي الخاصة في هذا الحوار في كتابي، «دولة واحدة، رغم كل شيء». وكنت قد قلت إن النشطاء السياسيين يميلون إلى الانخراط في حرب ثقافية مع بعضهم البعض، إلاّ أن معظم الأميركيين يتشاطرون قيماً مشتركة. فهم قد يختلفون حول قضايا اليوم، كما يُتوقع للناس في الديمقراطيات أن تختلف، لكنهم، خلافاً للستينات من القرن الماضي، ناهيك بحقبة الحرب الأهلية، يبقون على قدر مدهش من التوافق. إنهم يُقدّرون مكاسب الحرية الفردية التي نشأت كناتج ثانوي لفورة الستينات من القرن الماضي، ومن هذا المنظور أجد أن هيملفارب على حق عندما

نتائج الانتخابات بالألوان

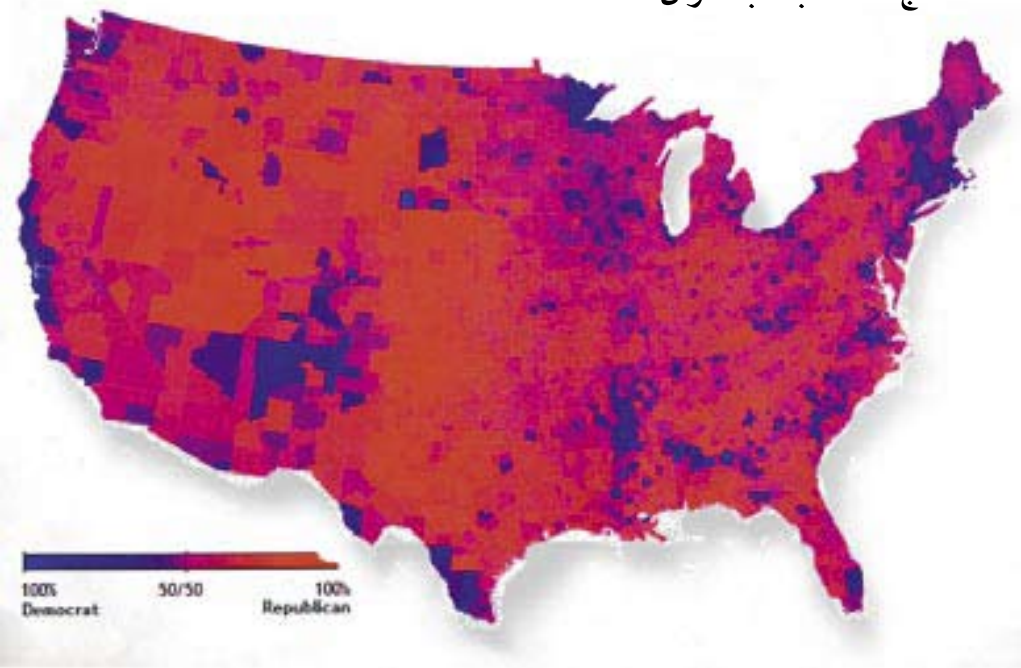

تصور الألوان الحمراء والزرقاء والأرجوانية فوارق النسب المئوية لنتائج الانتخابات في كل مقاطعة خلال الانتخابات الرئاسية الأميركية سنة 2004. يشير اللون الأحمر لشاغل المنصب، الجمهوري جورج دبليو بوش، واللون الأزرق لمنافسه الديمقراطي جون كيري. أما الظلال الأرجوانية، فتعكس تقارب نتائج التصويت في أنحاء مختلفة من البلاد. هذه الخريطة التي وضعها روبرت فاندرباي من جامعة برنستون واحدة من مجموعة من الخرائط الانتخابية والخرائط البيانية على موقع جامعة مشغان على الإنترنت (http://www-personal.umich.edu/~mejn/election/).

الرئيس جورج دبليو بوش يُصغي إلى آراء زعماء ديانات كثيرة خلال اجتماع في البيت الأبيض (صورة من البيت الأبيض)

لقد آمن العديد من مؤسسي الولايات المتحدة أن السلوك الأخلاقي المشترك يتطلب ديانة مشتركة. لكن، لما كانت الولايات المتحدة قد ألزمت نفسها بفصل الدين عن الدولة والتزمت الحرية الدينية في التعديل الأول لدستورها، لم تكن هناك أبداً ديانة مشتركة للولايات المتحدة، على الأقل، ليس بالمعنى الرسمي. ومع ذلك، يبقى أن الأغلبية العظمى من الأميركيين، أيام الآباء المؤسسين، كانت من البروتستانت وكانت، على الرغم من عدد الطوائف البروتستانتية الكبير، تتشاطر جميعها على الأقل أفكار الحركة الإصلاحية.

غير أن أية آمال بإمكانية العثور على مصدر غير رسمي للوحدة في الانتماء الواسع للبروتستانتية، انهارت نتيجة لوصول أعداد كبيرة من المهاجرين من خلفيات غير بروتستانتية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان التوتر بين العقائد قوياً لدرجة أن حرباً ثقافية حقيقية، أعنف وأكثر إحداثاً للانشقاقات بكثير من تلك المفترض أنها قائمة اليوم، اندلعت في مدن مثل بوسطن بين البروتستانت المولودين في البلاد وبين المهاجرين الكاثوليك من إيرلندا والبلدان الأخرى، ونتج عنها خسارة كبيرة في الأرواح والممتلكات. لكن تم، مع الوقت، التوصل إلى حل سلمي نسبياً للنزاع بين الأديان. ومع أن الطوائف المسيحية المتنوعة لم تكن قد أظهرت أبداً الكثير من الوحدة في ما بينها، فقد بدأت الولايات المتحدة في منتصف القرن العشرين تسمي نفسها مجتمعاً «مسيحياً – يهودياً»، يُوحّدها كون دياناتها الكبرى الثلاث تشترك، على الأقل، في نص مقدس واحد، هو الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل).

ورغم أن الغرض الأصلي من تعبير المسيحي – اليهودي كان في الأساس شمولياً يلمّ الشمل، إلا أنه يبدو الآن بمثابة تعبير يستثني الآخرين إذ أنه لا يشمل المسلمين والهندوس والبوذيين والعديد من الأديان الأخرى التي وصلت إلى أميركا بعد إصدار قانون الهجرة والجنسية الواسع الأبعاد سنة 1965، والذي وضع حداً لسياسة الكوتا أو تحديد عدد المهاجرين الذي كان لصالح المهاجرين من أوروبا. وقد وصلت التعددية والتنوع في الولايات المتحدة اليوم إلى درجة نفتقر معها إلى تعبير واحد لوصف تشدد على أهمية ذلك العقد من الزمن. لكن مشاعر الأميركيين حول تلك المكاسب كثيراً ما تكون متناقضة: فهم يتساءلون كثيراً عما إذا كانت الولايات المتحدة قد أفرطت في احترام الفردية الشخصية إلى درجة أنها لم تعد تحترم السلطة والتقاليد، ويريدون عادة من السياسيين أن يعملوا معاً ويعثروا على حلول مشتركة لمشاكل البلد.

وتوازي أهمية مسألة الوحدة الأميركية أهمية أي مسألة غيرها يواجهها الأميركيون حالياً. فالولايات المتحدة، في نهاية المطاف، عاشت تجربة حرب أهلية لم تنس مطلقاً ما سال فيها من دماء. ومهما كانت انقساماتنا الحالية عميقة، يبقى من المؤكد أنها لا تصل إلى تلك الأعماق. وكما تُذكرنا تجارب الحرب الأهلية، إن الانقسام والشقاق يضر الأميركيين أنفسهم، كما يضر الآخرين الذين يتطلعون إلى الولايات المتحدة لتتحمل مسؤولية موقع القيادة. ولا شك في أن واجبنا إزاء هاتين المجموعتين هو التمعن في ما وراء العناوين لمعرفة ما إذا كانت هناك معتقدات وممارسات قابلة للتطبيق والاستمرار وتجمع بين الأميركيين.

الدين والدولة

يبرز انقسام من بين جميع الانقسامات المفترضة في الحياة الأميركية على أنه ذو أهمية خاصة. يُقال لنا، أحياناً كثيرة ومتكررة، أن خط الصدع في أميركا هو ديني في طبيعته، يجمع بين جميع الذين يؤمنون بقوة بالله، أياً كان الإله الذي يؤمنون به، من جهة، وبين أولئك الذين لا يرون أن اليد الإلهية توجّه كل الأعمال البشرية، من جهة ثانية. لكن، إذا ما تبين أن الدين في أميركا هو مصدر للوحدة بقدر ما هو مصدر للشقاق، عندها تكون احتمالات الوحدة رغم كل الاختلافات، أو «من الكثرة واحد»، قد تعززت بصورة ملحوظة.

أنفسنا. وقد اقترح البعض تعبير «إبراهيمي» ، الذي يشمل المسلمين، ولكنه يستثني في نفس الوقت الديانات الشرقية. ولعله لا يوجد هناك اليوم أي مجتمع في العالم يزدهر فيه هذا العدد الكبير من الديانات في نفس الوقت كما هي الحال في الولايات المتحدة، ويمكن إعادة جذور كل هذا التنوع إلى القرار الذي اتخذه اتخذها مؤسسو أميركا بتشجيع الحرية الدينية.

ثقافة مشتركة؟

إزاء هذا الكّم الهائل من التنوع، بدأ البعض يقول إن الأميركيين يفتقرون إلى ثقافة مشتركة، وأنهم يواجهون، نتيجة لذلك، احتمال وقوع انشقاق بالغ الأهمية. وقد كانت هذه هي رسالة، «من نحن»؟، وهو كتاب أصدره سنة 2004 العالم السياسي في جامعة هارفرد، صموئيل ب. هنتنغتون. وقد ركز هنتنغتون بالدرجة الأولى على الأميركيين المكسيكيين الذين يأتي العديد منهم من خلفيات كاثوليكية، مصراً على أهمية وجود ثقافة مشتركة شكلتها الأنغلو – بروتستانتية يجب على المهاجرين الجدد الانتماء إليها. ولم يُركز هنتنغتون على الدين كمسبب للانشقاق، بل على أنواع الثقافة التي ترسم معالمها تقاليد الديانات المختلفة. ورغم هذا، يستحضر كتابه الحقبات السابقة في التاريخ الأميركي عندما دفعت المخاوف من التنوع الكتّاب إلى الاستنتاج أنه ما لم تعثر الولايات المتحدة على طريقة لحل مشكلة وجود عدد كبير جداً من الثقافات المتنافسة، فأن مستقبلها لن يكون مضموناً.

ما من شك بوجود تنوع ديني أو تعددية دينية في أميركا. إلا أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى التشكيك في الاستنتاج بأن التعددية هي مصدر للشقاق. ذلك أنه على الرغم من أن الأميركيين منتظمون في أنواع مدهشة ومتعددة من الطوائف والتقاليد، فإن الثقافة الأميركية تعمل كقوة قادرة على صياغة جميع دياناتها. وقد بدأ العلماء، خلال الأعوام الأخيرة، التركيز ليس على نصوص ومعتقدات الديانات الأميركية وحسب، بل وأيضاً على الطرق الحقيقية التي يمارس بها الناس العاديون معتقداتهم الدينية. ويشير أحد الاستنتاجات التي تم التوصل إليها من خلال تلك الأبحاث إلى أنه أياً كانت الفوارق بين ديانة وأخرى، فإن الناس كثيراً ما يمارسون عباداتهم بطرق لافتة للنظر بمدى تشابهها.

فالأميركيون، على سبيل المثال، يفضلون الديانات التي تخاطبهم شخصياً مباشرة. إنهم لا يثقون بالسلطات البعيدة، وفي بعض الحالات، لا يثقون حتى بالسلطات المحلية. وهم يتوجهون بوجه عام نحو الدين لأسباب عاطفية أكثر منها فكرية؛ والنصوص المقدسة لا تشكل بالنسبة لهم وثائق وجدت لكي تُدرس بسبب أفكارها المفحمة، بل هي مصادر توجيهية حول كيفية تنظيم حياتهم في الأوقات الصعبة. والدين يوفّر لهم إحساساً قوياً بالصواب والخطأ، لكن الدين على استعداد في الكثير من الأحيان لغفران خطايا الناس ومنحهم فرصة جديدة. ويشعر الأميركيون عادة أيضاً، عبر إيمانهم، بمشاعر من التمكن والثقة. إن دينهم يعلمهم الحقائق، لكنه يقدم لهم أيضاً المحبة. ويتحّول الأميركيون أحياناً عن عقائدهم الأصلية بحثاً عن ديانة تقدم لهم شعوراً بالأصالة. ولا ينطوي الدين بالنسبة لهم على نوع من الالتزام المتزمت بالتقاليد، بل هو طريقة خلاقة ديناميكية تتغير باستمرار للتكيّف مع عالم مُعقّد.

ونظراً لكون الأميركيين يعيشون ديانات مختلفة بطرق متشابهة لافتة في الكثير من الأحيان، يمكن أن يشكل الدين مصدراً مهماً للوحدة. ولا يتعين على الناس الاتفاق حول من هو الله أو ما هو؛ بل يكفيهم أن آخرين يحاولون العثور على طرق إلى الإيمان تتناسب مع احتياجاتهم. وهذه الطرق المشتركة في ممارسة الدين قوية لدرجة أن المهاجرين الجدد القادمين حديثاً سرعان ما يكيّفون دين بلدهم الأم مع الواقع الأميركي. وفي القرن التاسع عشر، طوّر الكاثوليك واليهود طرازاً أميركياً لديانتيهما. ويقوم المسلمون والهندوس اليوم بالشيء نفسه تماماً.

أميركي فذ، الخدمة التطوعية

كرسّت كلارا بارتون (1821–1912) **حياتها لخدمة الآخرين. فقد بدأت التعليم في المدارس وهي في الخامسة عشرة وأسست لاحقاً مدرسة رسمية مجانية في بوردنتاون بولاية نيو جيرسي. وعندما اندلعت الحرب الأهلية الأميركية، أطلقت برنامج مساعدة لجمع الإمدادات الطبية والسلع الأخرى لتوزيعها على الجنود المصابين. وقد حققت جهودها نجاحاً باهراً جعل الحكومة تسمح لها بأن تسافر مع سيارات الإسعاف العسكرية لخدمة المرضى والمصابين. وقد أمضت بارتون ثلاث سنوات تتبع العمليات العسكرية، حيث كانت تحتضن رؤوس الجنود المصابين، وتقدم لهم الطعام والماء، وتساعد الأطباء**

الجراحين في عملهم، وتنظم البرامج للبحث عن الجنود المفقودين أثناء خدمتهم. وأسست بارتون، استناداً إلى تلك التجارب، الصليب الأحمر الأميركي سنة 1881، وخدمت كرئيسة متطوعة له لغاية 1904، ووسّعت دور حركة الصليب الأحمر الدولي بحيث تجاوز تقديم المساعدة في ساحات القتال ليشمل تقديم المساعدات والإغاثة في أوقات الكوارث. وظلت تعمل في ميدان برامج المساعدات لسنوات عديدة بعد بلوغها السبعين من العمر.

تَعَرُّف الناس على بعضهم البعض

إن ما ينطبق على الدين، ينطبق على نواحي الحياة الأخرى في أميركا. فالتجربة والخبرة تسمح بإيجاد نقاط تشابه حتى في وجه الفوارق. فبقدر ما يتعرف الأميركيون البيض على الأميركيين غير البيض في أماكن عملهم، بقدر ما تتراجع العنصرية. وبقدر ما يتزوج الأبناء بأناس من خلفيات غير خلفياتهم، بقدر ما تختفي بسرعة أكبر الانقسامات التي أفسدت حياة أجيال آبائهم وأجدادهم. صحيح أن العديد من الجنوبيين والشماليين قد لا يتفقون حول الأمور السياسية، لكن أنماط حياتهم متشابهة بصورة لافتة؛ فهم يقودون نفس أنواع السيارات إلى نفس أنواع متاجر التسّوق الكبرى لشراء أنواع المنتجات نفسها. فمع كل ما يقال عن أميركا الزرقاء والحمراء، يمكن وضع أي إنسان في أي مكان من البلاد ليجد أن كل شيء مألوف لديه، بل مألوف إلى حد مفرط.

والواقع هو أن كل الأسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن الانشقاق الذي شهده الأميركيون في عام 2004 سيؤدي على الأرجح إلى بروز حركات مضادة هدفها تذكير الأميركيين بأنهم يتشاركون معاً في جنسيتهم القومية رغم كل الفوارق السياسية بينهم. ويعود الاستقطاب في معسكرين منفصلين بمكاسب سياسية واضحة، وعلى الأخص للمتحزبين الذين يحشدون أتباعهم بالتشديد على النوايا الخبيثة الموجودة لدى الجانب الآخر. إلا أن ما يحدث في المجال السياسي، على الأقل في النظام السياسي الديمقراطي الناجح، هو أنه تتم مقابلة كل رد فعل، في نهاية الأمر، بردة فعل معاكسة. وأنا أعتقد أن الأميركيين الذين توحدّهم الممارسات المشتركة للدين، والتجارب المشتركة في نواحي الحياة الأخرى، سوف يصلون النقطة التي سيتساءلون عندها عما إذا كان يجب معاملة الأميركيين الآخرين، الذين يختلفون معهم سياسياً، كما لو أن وجهات نظرهم تجعلهم خارج الحدود المقبولة.

وأنا واثق من أنهم، عندما يقومون بذلك، سوف يخلصون إلى أننا دولة واحدة في نهاية الأمر. فاستقلاليتنا الفردية الشخصية الأميركية وتوقنا إلى اكتشاف الذات يتغلبان على الفوارق بيننا. وطالما ظللنا نتذكر أننا نتشكل من ثقافة أميركية مشتركة، فإننا سنواصل، كما فعلنا أحياناً كثيرة في تاريخنا، مدّ الجسور التي تصلنا ببعضنا البعض وتبقينا متكاتفين متحدين.

ألان وولف أستاذ العلوم السياسية ومدير مركز بويزي للدين والحياة العامة في جامعة بوسطن (مساتشوستس). من جملة مؤلفاته «دولة واحدة، رغم كل شيء» (1998)، و«التغير الجذري في الديانة الأميركية: كيف نعيش إيماننا حقا» (2003)

ملحوظة: إن الآراء الواردة في هذا المقال لا تمثل بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

النقاش حول الهجرة

حوار مع مايكل بارون وفكتور هانسون

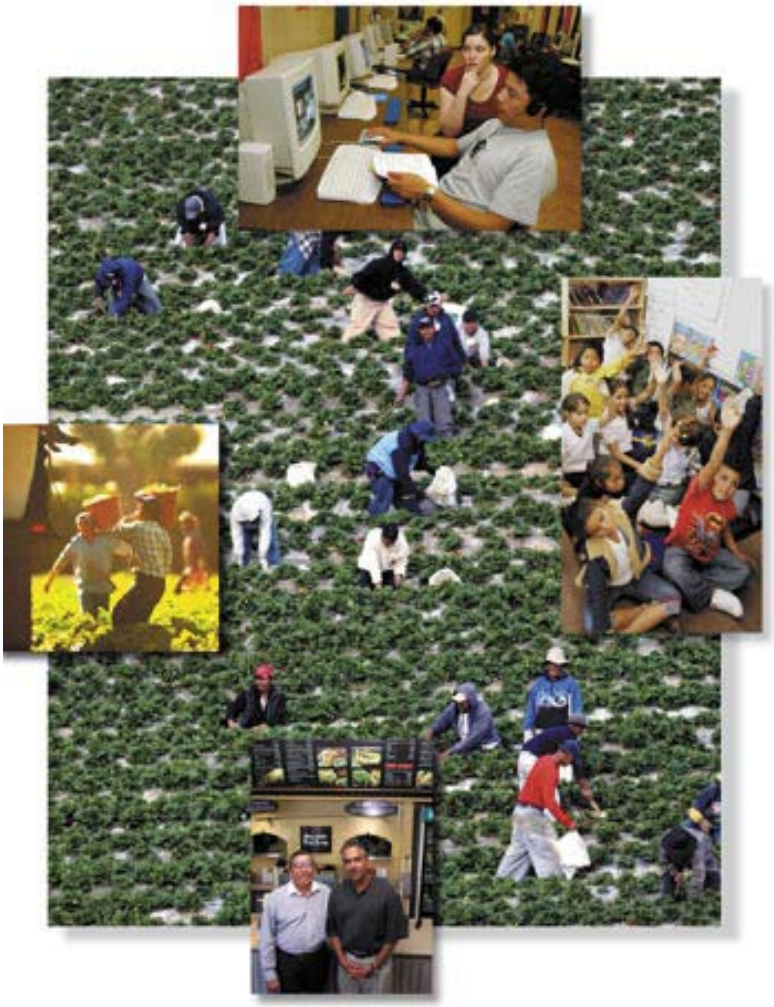

الشرح أدناه

دخل الولايات المتحدة ملايين من المهاجرين الجدد خلال العقد الأخير. والحقيقة هي أن البلاد لم تشهد، منذ العشرينات من القرن الماضي، مستويات هجرة كالتي تشهدها في الوقت الحاضر. وقد دخل العديد من المهاجرين الحاليين البلد بصورة غير شرعية وهم يمارسون أعمالاً أجورها متدنية وتتطلب القليل من المهارة. في حين دخل غيرهم، من الحاصلين على درجات علمية عالية، سوق العمل الأميركية بصورة شرعية كمهنيين مهرة يتلقون أجوراً عالية في ميادين التكنولوجيا العالية، والعلوم، والطب. ووفد آخرون إلى البلد للانضمام إلى أفراد عائلاتهم أو بصفة لاجئين.

أشعلت هذه الموجة الجديدة من الهجرة شرارة نقاش مكثف في الولايات المتحدة. ويتبنى البعض اليوم سياسة الباب المفتوح نسبياً كاستمرار لتقليد قديم في الولايات المتحدة يقوم على أساس الترحيب بالقادمين الجدد الساعين وراء الوعد الأميركي في الحرية والفرص الاقتصادية. في حين يثير آخرون تساؤلات حول الحكمة في السماح لهذا العدد الكبير من المهاجرين الجدد من دخول البلاد، خوفاً من تأديته إلى تقويض التقاليد والقيم التي يعتز بها الأميركيون تدريجا. وقد دَعَونا خبيرين في شؤون الهجرة لمناقشة هذا الموضوع: مايكل بارون، وهو من كبار الكتاب في مجلة «يو إس نيوز أند وورلد ربورت»، ومؤلف كتاب «أميركا الجديدة: كيف تستطيع بوتقة الصهر النجاح مجددا»، وفكتور هانسون، البحاثة في مؤسسة هوفر ومؤلف كتاب «مكسيفورنيا: حالة حدوث في طور التكون». وأدار الحوار جيمس دِكماير، الملحق الصحفي في السفارة الأميركية بمدينة مكسيكو. وقد أُدير الحوار من بُعد بواسطة وصلة فيديو رقمي. وفي ما يلي، نص مختصر لما جاء في الحوار.

الصور:

فوق: مهاجر من غواتيمالا يدرس الإنجليزية على كومبيوتر بمساعدة مُدرّس في إيست سنترال كوميونيتي كولدج في فورست بولاية ميسيسيبي (صورة للاسوشيتدبرس / روجيليو سوليس).

إلى اليسار: عمال مزارع يحملون سلالاً من القرع إلى شاحنة بالقرب من حقل في هومستد بولاية فلوريدا (صورة للاسوشيتدبرس / ج. بات كارتر).

إلى اليمين: تلامذة في الصف الثالث الابتدائي يرفعون أيديهم للإجابة عن أسئلة في مدرسة أوايسيس الابتدائية في أوايسيس بولاية كاليفورنيا. واللغة الإنجليزية هي اللغة الوحيدة المستخدمة في تدريس تلامذة المدرسة البالغ عددهم 650 تلميذاً، علماً أن أكثر من 90 بالمئة منهم من أصل اسباني (صورة للاسوشيتدبرس / فرانسِس سْيكِر).

في الأسفل: صاحبا الأعمال رافائيل (إلى اليسار) وابنه رالف روبيو، وهما مهاجران من المكسيك، يقفان وراء النضد في أحد مطاعم باها غريل التي يملكها روبيو في سان دييغو، بكاليفورنيا، وهي سلسلة صغيرة ولكن متعاظمة من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة والآخذة في تأسيس محلات لها عبر الولايات المتحدة. (صورة للاسوشيتدبرس / لِنّي إغنلزي).

موجة جديدة من الهجرة: هل هي مختلفة ؟

مدير الحوار: كيف يمكن مقارنة الموجة الأخيرة من الهجرة إلى الولايات المتحدة مع موجات الحقب السابقة ؟

فيديو

السيد بارون: إن موجات الهجرة السابقة في التاريخ الأميركي لم تكن في العادة موجات تكهن معظم الخبراء بها، بل كانت تحدث ببساطة وتفاجئنا.

ولو كنت قد قلت لمعظم الخبراء الديموغرافيين الأميركيين سنة 1970 أننا سوف نشهد تدفق بين 20 و 30 مليون مهاجر خلال الـ 25 أو الـ 30 سنة القادمة، لكانوا قالوا لك: «أنت مجنون. إن الهجرة أمر حدث في الماضي. ولم تعد تحدث الآن.»

لكن ما حدث هو أننا شاهدنا تدفقاً كبيراً من المهاجرين. واستمر الأمر كذلك سنة 2004 مع قدوم موجات كبيرة من أميركا اللاتينية، غالبيتها من المكسيك. وليست لدينا إحصاءات دقيقة عن الهجرة الحالية لأن أعداداً كبيرة من مهاجرينا غير شرعيين، وليس لدينا تعقّب جيد للمهاجرين غير الشرعيين إلى الولايات المتحدة. ويتضمن دفق المهاجرين من آسيا وإلى حد ما من أميركا اللاتينية، باستثناء المكسيك، نسبة مئوية كبيرة من الناس من ذوي المهارات الرفيعة. أما النسبة المئوية من خريجي المدارس الثانوية، والذين يحملون شهادات تعليمية أخرى، والذين برهنوا على مستويات من المهارة في الوظائف، فأدنى بين المهاجرين القادمين من المكسيك.

وعليه فقد ظلت الهجرة مستمرة. وقد قلت في كتابي «الأميركيون الجدد» الذي صدر سنة 2001، إن مجموعات الأقلية اليوم تشبه مجموعات المهاجرين الذين وفدوا قبل 100 سنة. السود يشبهون الإيرلنديين، والقادمون من أميركا اللاتينية (لاتينو) يشبهون الإيطاليين، والآسيويون يشبهون اليهود.
وفي حين أن المقارنات ليست دقيقة لكنني أعتقد أنها تنطوي على أوجه شبه كبيرة مهمة. وأحد الاختلافات، طبعاً، هو أن أميركا اللاتينية، وبالأخص المكسيك، مجاورة للولايات المتحدة، بحيث أصبح لدينا الآن في هذا البلد مجموعة كبيرة من الناس الذين تشكل الإسبانية لغتهم الأولى والذين قد يتعلمون، أو قد لا يتعلمون إتقان اللغة الإنجليزية.

مدير الحوار: د. هانسون، ما هو الفرق بين هذه الموجة الجديدة من المهاجرين وبين موجة مطلع القرن العشرين التي جاءت من أوروبا وغيرها؟

فيديو

د. هانسون: سطحياً، ليس هذا بالشيء الجديد، لكن، بعد التمعن في الأمر، لا أعتقد أنه سبق أن شاهدنا إطلاقاً ما يتراوح بين 8 و 12 مليون إنسان يعيشون أساساً في منطقة جغرافية واحدة، جاءوا إلى هنا (برعاية) غير شرعية. هذا أمر جديد. وما هو أهم من ذلك هو أن موقف المُضيف تجاههم جديد. كانت لدينا في القرن التاسع عشر إيديولوجية اندماج أو عملية «انصهار في البوتقة» قاسية لا ترحم.

لكن بعد 30 سنة من التعليم الثنائي اللغة في كاليفورنيا، والذي تخلّينا عنه في نهاية المطاف، أصبح لدينا برنامج دراسات مكسيكي (تشيكانو) في كل جامعة من جامعات الولايات، وهو برنامج شوفيني نوعاً ما ومثير للخلاف. وأصبح لدينا (أيضاً) وثائق حكومية ثنائية اللغة؛ ولدينا الآن، في كاليفورنيا، تجمعات سكانية كاملة يأتي إليها الناس من المكسيك بصورة غير شرعية بسبب الروابط العائلية.

هناك إذاً تجمعات سكانية كاملة تجد أن بإمكانها، إلى حد ما، خلق المكسيك من جديد دون أن تندمج بعد جيل واحد. وهكذا، لدينا فعلاً مجتمعان. فهناك عملياً مئات الآلاف من الناس الذين لم يندمجوا في البلاد بعد الجيل الثاني.

السيد بارون: لدي نظرة مختلفة قليلاً عن نظرة فكتور هانسون حول ما يجري في الولايات المتحدة، ذلك أنني أعتقد أن القوى التي تُشجّع الاندماج مع السكان الأميركيين لا تزال قوية حتى وإن كانت أضعف نوعاً ما مما كانت عليه قبل مئة سنة. يشير فكتور هانسون إلى عملية الاندماج عبر بوتقة انصهار لا ترحم قبل مئة سنة. وقد كان الناس أيام الرئيس السابق تيودور روزفلت، يستخدمون تعبير «الأمركة».

فيديو

لكن مساعدة الناس على إتقان اللغة الإنجليزية وفهم كيفية عمل الحكومة الأميركية والاقتصاد الأميركي، ليست اضطهاداً بالطبع. إنها أمور ضرورية للنجاح وللارتقاء في الولايات المتحدة. وأنا أعتقد أن القسم الأكبر من الشعب الأميركي والقسم الأكبر من المهاجرين يُؤمنان بالاندماج على الرغم من عدم إيمان النخبة الأميركية الجامعية والصحفية والإعلامية، وإلى حد ما، النخبة في الشركات الكبرى، بالاندماج كما كانت تؤمن به قبل مئة

عام. وفي رأيي أننا نشاهد درجة من الاندماج ومن الارتقاء في المجتمع (بين المهاجرين من أميركا اللاتينية) ربما أعلى من درجة اندماج الأميركيين الإيطاليين قبل مئة عام.

وعلينا أن نتذكر أنه لم يكن يبدو على الدوام قبل مئة عام أن عملية الاندماج ستحقق النجاح. فقبل مئة عام، كان يقال للأميركيين أن الإيرلنديين والإيطاليين واليهود والمهاجرين الآخرين هم شعوب من عرق مختلف وأنه يستحيل أن يندمجوا تماماً في الحضارة الأميركية الأنغلو – سكسونية. ونعرف اليوم أنه ثبت خطأ تلك التكهنات، وأعتقد أنه سيثبت خطأها بالنسبة للأعداد الكبيرة من المهاجرين الأميركيين الراهنين.
صحيح أن البعض من المهاجرين سيعود إلى بلده الأم مثلما فعل بعض المهاجرين الإيطاليين واليونان قبل مئة عام؛ وصحيح أن البعض لن يتقن اللغة الإنجليزية، وأن علينا القيام بعمل أفضل في مدارسنا و إلغاء ما يسمى التعليم الثنائي اللغة الذي لا هو ثنائي اللغة ولا هو تعليم، في كثير جداً من الأحيان.

الاندماج: ما هو وكيف يحصل ؟

مدير الحوار: دعونا نتحدث عن تعبير «الاندماج» هذا. د. هانسون ما الذي يشير في نهاية المطاف إلى حصول الاندماج؟ هل هو اللغة، أو تقبل قيم معينة، أو الاقتران بأشخاص من المجموعات العرقية الأخرى؟

فيديو

د. هانسون: إنه التمكّن من اللغة. إنه تقبل القيم الأميركية، ويمكن أن يشمل هذا كل شيء، من التسامح الديني إلى حسن معاملة النساء، إلى تنظيم الأسرة، إلى الموقف من الحكومة.
لكن ما أريد الإشارة إليه هو أن لدينا، كما سبق وقلت، ظاهرتين تجريان في نفس الوقت. فهناك، من جهة، قصة النجاح، بالنسبة لخمسة أو ستة من أصل كل عشرة أجانب غير شرعيين.

لكن أعداد المهاجرين غير الشرعيين كبيرة لدرجة أنك إذا وجدت نفسك في وضع تتراوح نسبة الفشل فيه ما بين 30 و 40 بالمئة، فإن ذلك يعني أن ربع نزلاء السجون في كاليفورنيا هم من الأجانب غير الشرعيين. لأننا نقبض على ما بين مليون ومليوني إنسان، أو ثلاثة ملايين، يحاولون عبور الحدود، وهناك حوالي مليون أو مليونين ينجحون في ذلك فعلاً، تُشكّل نتيجة هذه الأعداد، عملياً، سياسة من التمييز العنصري الواقعي.

وماذا يعني هذا من الناحية العملية ؟ يبدو للإنسان الذي لا يعيش مع هذا الوضع أن بوسع السوق دائماً اتخاذ القرار بالنسبة لهذه الأمور أو أنه يمكننا مُجرّد الاستمرار. لكن ماذا يعني ذلك على مستوى المجتمعات المحلية؟ إنه يعني أنك قد تستيقظ في الصباح وربما ترى أريكة قديمة متروكة في حديقتك الأمامية لأن الناس لم تتعود بعد على استخدام خدمة جمع النفايات، أو كما حدث لجاري، تجد بقرة، بقرة نافقة. أو يعني ذلك أنك عندما تذهب إلى المدرسة، لا يوجد في منطقتي مدرسة تضم طلبة من جميع الأعراق، ستجد 90 بالمئة من الطلاب ينتمون إلى مجموعة عرقية معينة. أو في مزرعتي، يعني ذلك أن لدى القادمين من المكسيك أفكاراً مختلفة عن أفكارنا حول المرأة وحول دور المرأة في المجتمع إلى أن يتم اندماجهم.

وإذا كان لديك موقف في نظام الجامعات أو نظام المدارس بأن (هذه) مجرد رؤيا بديلة أو ثقافة بديلة، عندها يصبح من الصعب جداً أن تغيّر ذلك.

وهذه النقطة الأخيرة هامة جداً لأنه لا يتم التركيز عليها بما فيه الكفاية. إن الاندماج ليس عملية ساكنة لا تتغير. ولكن نظراً لوجود هذا العدد الكبير من الداخلين إلى البلد ومن الداخلين بطريقة غير مشروعة فإننا نخلق مجموعة انتقالية دائمة تقريباً مؤلفة من مليون أو مليوني إنسان هم ضمن عملية الاندماج هذه، ولكنه ليس اندماجاً بمفهوم القرن التاسع عشر. إنني أتحدث عن عملية تدوم 30 أو 40 أو 50 سنة.

ولو كنا نستقبل 150,000 مهاجر شرعي من المكسيك، ونسيطر على الحدود، ونطلق العنان لقوى الاندماج الهائلة، تماماً كما فعلنا في كاليفورنيا لغاية حوالي سنة 1965 أو 1970، لما كان علينا أن نعيش هذه المحنة الآن. من السهل جداً القيام بذلك. ولن نقوم عندئذ بإعطاء الأفضلية للهجرة المكسيكية غير الشرعية على الهجرة الشرعية من البلدان الأخرى.

ويدور الخلاف الأكبر حول الهجرة حالياً في مقاطعة فريزنو بكاليفورنيا، وهي منطقة الصفر في ما يتعلق بالازدياد الهائل في الهجرة غير المشروعة، حيث يوجد سيخ من الهند، أشخاص من جنوب شرق آسيا يتحتم عليهم الانتظار خمس أو ست أو سبع سنوات ليتمكن مهندس كهرباء من أسرتهم أو مُدرّس من الدخول إلى البلاد بسبب تعقيدات الحكومة، بينما يجدون في ذات الوقت غيرهم من الناس يدخل بصورة غير شرعية بفضل الروابط العائلية. يخلق هذا الوضع انعداماً من الثقة بالقانون واحترامه، وله تأثير مضّر يقوض القانون يضعف القانون بصورة عامة.

مقترحات جديدة حول الهجرة

مدير الحوار: لدى الرئيس بوش اقتراح تحت البحث، طرحه قبل قرابة سنة، يقترح فيه بعض أنواع الآليات التي تضم ما يسميه البعض برنامج العامل الضيف. هل سيعالج هذا البرنامج أمر هذا الارتفاع الكبير المفاجئ في الهجرة غير المشروعة؟

السيد بارون: أعتقد أن خطة الرئيس التي أعلنها في كانون الثاني / يناير 2004، والتي لم تحقق تقدماً يذكر في الكونغرس، تقوم على أساس الفرضية القائلة إن هناك طلباً اقتصادياً على عدد كبير من المهاجرين وأن تلبية هذا الطلب تتم لا عن طريق الهجرة الشرعية وحسب، بل وعن طريق الهجرة غير الشرعية أيضا.

وأظن أن الدليل على صحة ذلك قوي جداً. فإن طريقة عمل السوق الاقتصادية في وضع يؤدي معه تمكننا فجأة من طرد جميع المهاجرين غير الشرعيين من الولايات المتحدة بين عشية وضحاها إلى توقف قطاعات واسعة من اقتصادنا عن العمل. لن يعود بإمكان المرء الحصول على طبق نظيف في مطعم في لوس آنجلس، وأمور أخرى من هذا النوع. وما يحاول اقتراح الرئيس بوش تحقيقه بالتالي هو توفير برنامج «عامل ضيف» (أي مؤقت) للتوفيق بين العمال الراغبين في العمل وبين أرباب العمل الراغبين في توظيفهم، وإعطاء المهاجرين في هذا البلد نوع من الوضع القانوني.

والملفت هو أن هذا الاقتراح، أو ما شابهه، يلقى تأييداً من أعضاء الحزب الديمقراطي في الكونغرس يفوق ما يلقاه من تأييد من أعضاء حزب الرئيس نفسه، الحزب الجمهوري. ويجادل العديد من الجمهوريين بأن هذا يعني مكافأة أعمال غير المشروعة بجعل أوضاعها قانونية. وتقول إدارة الرئيس بوش إن برنامجها لن يضع العمال الضيوف بصورة آلية على مسار الحصول على الجنسية، غير أن بعض الديمقراطيين يحبّذون برنامجاً للعمال الضيوف يضع هؤلاء العمال بصورة آلية على طريق الحصول على الجنسية.

هناك إذاً اختلاف أيضاً بين حكومة الرئيس بوش وبين الكثير من الديمقراطيين في الكونغرس الناشطين في هذا الموضوع.

مدير الحوار: د. هانسون، ما رأيك بذلك النقاش من حيث ما إذا كان اقتراح الرئيس يؤمن لنا حلاً عملياً للمشكلة؟

د. هانسون: ما يجب أن نتذكره حول هذا الاقتراح هو أنه يترك عدداً من الأسئلة دون الإجابة عنها يعادل عدد الأسئلة التي يجيب عنها. ذلك أن البرنامج سيؤدي إلى منح وضع قانوني لمجموعة من ربع مليون، أو لنقل 300,000 عامل ضيف. ماذا ستفعل بالسبعمائة ألف عامل الآخرين الذين لا يريدون المشاركة في البرنامج ؟ هل ستعزز فعلاً حراسة الحدود أم سوف ترحّلهم؟...

إذا طبقنا برنامج العمال الضيوف، ستظل هناك مجموعة بديلة من العمال الذي يريدون دخول البلاد بصورة غير شرعية، وسيتعين على الحكومة التشدد إزاءها. أما المشاركون في البرنامج فسيريدون البقاء (في الولايات المتحدة).

هناك في مقاطعة فريزنو مشكلة سيكولوجية، وفلسفية، وأخلاقية عندما يقول رئيس مكتب المزارعين أننا لن نتمكن من قطف محصول الدراق (الخوخ) ما لم يكن لدينا 30,000 شخص غير شرعي من أوكساكا (في المكسيك)، وذلك في حين تعتبر غرفة التجارة أن هناك 50,000 أو 60,000 مراهق دون عمل، وأن معدل البطالة في مقاطعة فريزنو يبلغ 16 بالمئة، معظمهم من المهاجرين من بلدان ناطقة بالإسبانية من الجيلين الأول والثاني. إن كون المقاطعة أو المقاطعات التي توجد فيها أعلى معدلات من الهجرة غير المشروعة هي التي توجد فيها أيضاً أعلى معدلات البطالة يشكل إدانة شديدة للنظام.

السيد بارون: أليس أحد أسباب معدل البطالة المرتفع هذا في «سنترال فالي» ناجم عن السياسة الأكثر تشدداً في السيطرة على الحدود التي تجعل من الصعب على الناس الذين يعملون بصورة موسمية في الزراعة في «سنترال فالي» العودة إلى المكسيك ... أو أي مكان آخر لمدة خمسة أو ستة أشهر أو سنة ؟ إنهم لا يريدون المخاطرة بعبور الحدود مجددا. إنهم يفضلون البقاء في مقاطعة فريزنو حيث قد يجدون أنفسهم مؤهلين للحصول على مساعدات من نظام المساعدات الاجتماعية.

د. هانسون: لا أعتقد ذلك، لأن إحدى الأساطير الأخرى التي لا أساس لها من الصحة حول الهجرة غير الشرعية هو أن المهاجرين غير الشرعيين يعملون في الدرجة الأولى في الزراعة، في حين أن هؤلاء يشكلون فقط حوالي 20 إلى 25 بالمئة من الأجانب غير الشرعيين. هناك اتجاه إلى الربط بين برنامج العامل الضيف وبين الزراعة، لكن معظم الأجانب غير الشرعيين الذين يأتون إلى القسم الأوسط في كاليفورنيا يعملون في البناء، والفنادق، والمطاعم، رغم أننا نعرف أناساً قادرين على القيام بتلك الأعمال ومسجلين لدينا في قوائم العاطلين عن العمل.

لماذا يحدث هذا ؟ لأنه بقدر ما تطول إقامة الناس في الولايات المتحدة بقدر ما يتعرفون على المجالات المتنوعة من برامج المساعدات ويفقدون ذلك الحماس المتقد للعمل. (كما أنك)، إذا سألت أرباب العمل، ولهذا السبب أعتقد أن المسألة هي حقاً أخلاقية، سيقولون لك إنهم يفضلون أناساً تتراوح أعمارهم بين

15 و 25 سنة من المكسيك ولا يتكلمون الإنجليزية لأنهم يعملون بجد أكبر بكثير مما يعمل أبناؤهم أو أبناء عمومتهم الذين ولدوا في الولايات المتحدة، أو أولئك الذين تجاوزوا الأربعين أو الخمسين من العمر.

إن ما نتحدث عنه حقاً إذن هو الهجرة غير الشرعية، إنها الكذبة الكبرى التي لا يريد أحد التحدث عنها. إنها إعادة تدوير للرأسمال البشري. إننا نأخذ الناس من المكسيك، ونستخدم، إلى حد كبير، أفضل سنواتهم، ثم نقذفهم، كأرباب عمل، لقطاع برامج المساعدات الاجتماعية في المجتمع للعناية بهم عندما يبلغون الخمسين. ولا نريد توظيف أبنائهم العاطلين عن العمل وغير المتعلمين، بل نريد أناساً أصغر منهم سناً للحلول محلهم لنبدأ الدورة من جديد.

أميركي فذ:، التعليم

عاش السناتور الأميركي الراحل ج. وليام فولبرايت (1905-1995) الذي أصبح اسمه مرادفاً لبرامج التبادل التعليمي الدولي، حياة مكرسّة للخدمة العامة، وعلى الأخص، للتعليم. وقد تضمنت حياته الدراسية الالتحاق بجامعة أكسفورد في المملكة المتحدة كباحث ضمن برنامج منحة رودس. عمل السناتور فولبرايت كمحام، وكأستاذ حقوق، وكرئيس لجامعة آركنسو قبل ولوج السياسة. وقد اقترح سنة 1946 تشريعاً تأسس بموجبه برنامج منح فولبرايت الدراسية الذي كان هدفه «زيادة التفاهم المتبادل بين شعب الولايات المتحدة وشعوب البلدان الأخرى». وخلال الحوالى ستين عاماً التي انقضت على تأسيس البرنامج، شارك فيه أكثر من 225,000 شخص، من الولايات المتحدة ومن حول العالم، بمن فيهم أشخاص أصبحوا في ما بعد من الفائزين بجائزة نوبل ورؤساء دول. وقد ظل السناتور فولبرايت، حتى نهاية حياته، منهمكاً في العمل في البرنامج الذي حمل اسمه.

الطلب على اليد العاملة المهاجرة

مدير الحوار: عرفت الولايات المتحدة خلال العقدين الأخيرين معدلات بطالة متدنّية. ألا يعني هذا، من ناحية الطلب على اليد العاملة، أنه لا يزال هناك الكثير من الفرص لاستقدام الناس وفي نفس الوقت توظيف الذين يسعون حالياً إلى وظيفة داخل الولايات المتحدة ؟

السيد بارون: تحدثنا بصورة رئيسية حول جزء من وضع الهجرة في الولايات المتحدة، وسؤالك يلقي الضوء على بعض الأجزاء الأخرى. المسألة هي أن عدداً كبيراً من المهاجرين هم من ذوي المهارات العالية. والأرجح هو أن نسبة أصحاب المهارات أعلى بين المهاجرين الآسيويين منها بين المهاجرين من دول أميركا اللاتينية. لكننا نرى أن المهاجرين يشغلون العديد من الوظائف التي لم يُدرَب الأميركيون عليها.

هناك، في ميادين العلوم والكومبيوتر والتكنولوجيا، أعداد كبيرة من المهاجرين، بالدرجة الأولى من آسيا. وفي ميدان الطب، هناك عدد كبير من المهاجرين. إذهب إلى مستشفيات ولايات الغرب الأوسط وسترى أن عدداً كبيراً من العاملين فيها، سواء أكانوا أطباء أو ممرضات، هم من أصل آسيوي جنوبي، قدموا من الهند وباكستان ومن بلدان أخرى.

أعتقد أنك تستطيع أن تخطّيء الولايات المتحدة لأنها لم تدرّب مزيداً من المهندسين والعلماء، ولأنها لم توجه مزيداً من الشباب الذين قد يصلحون لولوج هذه الميادين. لكن الواقع هو أن قسماً كبيراً من نمونا وازدهارنا ولدّه المهاجرون ذوو المهارات العالية ويبدو أن الاقتصاد يولّد طلباً كبيراً عليهم.

مدير الحوار: هل هناك نقطة توازن يتغير الوضع بعد الوصول إليها؟ نقطة توازن بالنسبة للظروف التي يقلص الوصول إليها في بلد المهاجرين الأم من رغبتهم في القدوم إلى الولايات المتحدة ؟

د. هانسون: ... المسألة تدور حول الأسباب التي تجعل المكسيكيين في المكسيك يرغبون في القدوم بهذه الأعداد الكبيرة، الأسباب الأخرى علاوة على كونهم في دولة مجاورة ولهم تاريخ جوار مع الولايات المتحدة، ولديهم أقرباء هنا.
أعتقد أن لدى الحكومة المكسيكية سياسة غير رسمية تخدمها جيداً بطريقتين أو ثلاث طرق. أولاً، أعتقد أن الهجرة المكسيكية إلى الولايات المتحدة هي ثاني أكبر مصدر للدخل بالنقد الأجنبي بعد النفط. ذلك أنه يتم تحويل 12 مليار دولار تقريباً من العمال في الولايات المتحدة إلى المكسيك سنوياً. وهو مبلغ حيوي بالنسبة للاقتصاد المكسيكي.

وهناك، ثانياً، شعور بأن المكسيك لن تضطر فعلاً إلى تبني إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية حقيقية أساسية طالما لديها صمام أمان لمليون أو مليوني إنسان يتوقعون السكن والطعام واللباس على المستوى الذي يرونه بصورة دائمة من خلال الوسائل الإعلامية الدولية.

ثم أن هناك أيضاً الظاهرة التي تحصل مع المهاجرين من المكسيك. فكلما بعدت المسافة بينهم وبين المكسيك وكلما طالت فترة ابتعادهم، كلما زادت نظرتهم الرومانسية إلى بلدهم. وهكذا، يرفع كل واحد منهم علم المكسيك. وقد أصبحوا قوة ضغط كبيرة. وبعضهم، كما تعلمون، ناخبون. فالوضع إذن، وضع يعمل لصالح الحكومة المكسيكية من جميع النواحي.

السيد بارون: اسمحا لي بإضافة شيء حول السؤال المتعلق بالنقطة التي تتغير الأمور بعد الوصول إليها، لأن هناك حالة تم ضبطها قد تلقي بعض الضوء عليه، أي بورتو ريكو.

إن سكان بورتو ريكو مواطنون أميركيون بموجب القانون الذي أقّره الكونغرس سنة 1917، ولهم حق الوصول الكامل إلى الولايات المتحدة كمواطنين أميركيين، وبإمكانهم المجيء والذهاب كيفما شاؤوا وهم غير خاضعين لأية إجراءات خاصة بالهجرة. في أواخر الأربعينات وفي الخمسينات من القرن الماضي، كانت هناك هجرة واسعة من بورتوريكو، خصوصاً باتجاه مدينة نيويورك ومنطقة مدينة نيويورك الكبرى. كان هناك شعور بأن الهجرة من بورتوريكو سوف تستمر، وأن مستويات المعيشة في بورتوريكو كانت أدنى بكثير، وأن هذه الهجرة قوة سوف تتواصل.

أما الذي حصل فمختلف تماماً. فمنذ حوالي سنة 1961، تقلصت الهجرة الداخلية من بورتوريكو إلى الولايات المتحدة القارية حتى بلغت الصفر تقريباً. وقد ظلت هكذا تقريباً منذ ذلك الحين. وكانت سنة 1961 أيضاً النقطة التي بلغت فيها مستويات الدخل للفرد في بورتوريكو ثلث مستوى دخل الفرد في الولايات المتحدة القارية. ومن الواضح أن كلفة المعيشة أدنى أيضاً في بورتو ريكو، مما يعني أن الفارق في مستوى المعيشة أقل مما توحي به أرقام الدخل تلك.

ليس في المكسيك الآن مستويات دخل تعادل ثلث مستوى الدخل في الولايات المتحدة. إنها حالياً أدنى من هذا الرقم بكثير. ولا أظنني أريد القول أن هناك نقطة توازن سحرية وأنه متى بلغ ذلك البلد ثلث الناتج القومي المحلي الأميركي للفرد، سوف تنقطع الهجرة منه كما ينقطع سيل المياه من الصنبور. لعل هذه فكرة ميكانيكية أكثر من اللزوم.

غير أن حالة بورتو ريكو تدعم الفكرة القائلة بأنه يأتي وقت يرتفع فيه المستوى الاقتصادي في البلد المانح، مانح المهاجرين، إلى حد كاف فيتراجع حجم الهجرة منه بشكل كبير. وقد بلغت ألمانيا هذه النقطة في حوالي الثمانينات وبداية التسعينات من القرن التاسع عشر. وتراجعت آنذاك الهجرة من ألمانيا بشكل كبير. وتم بلوغ هذه النقطة في أوروبا القارية في حقبات لاحقة في بلدان مختلفة. وتمّ بلوغ هذه النقطة مع كوريا. فالهجرة من كوريا الجنوبية بلغت ذروتها في الثمانينات من القرن الماضي، وهي الآن أدنى بكثير مما كانت عليه سابقاً.

ولذا فإنني أعتقد أن تلك العملية قد تكرر نفسها. ولست على استعداد للتنبؤ بدقة متى سيحصل ذلك، لكن من الممكن بلوغ نقاط توازن في الهجرة بحيث ينخفض تدفق المهاجرين من بلد مُعيّن باتجاه الولايات المتحدة بصورة كبيرة.

د. هانسون: أريد أن أُعلق قليلاً وبصورة مختلفة على هذه النقطة لأني درست الهجرة من جزر فيرجن الأميركية، مثلاً، ومن بورتوريكو كذلك. يبدو أنه تم بلوغ نقطة التوازن جزئياً عن طريق برنامج «المجتمع الكبير» في الستينات من القرن الماضي الذي قدم، لأول مرة، لجميع الأميركيين عناية صحية مجانية في غرف الطوارئ، والكثير من المساعدات العائلية، ومستويات معينة من الضمان الاجتماعي. وهكذا وجد هؤلاء الناس الذين كانوا مواطنين في (تلك الأراضي الأميركية) أن بإمكانهم الحصول على الرعاية الصحية والحصول على معاش شهري كمواطنين أميركيين. لم يعد الأمر مختلفاً كثيراً عما هو في الولايات المتحدة (القارية). وكانت هذه فعلاً النقطة التي وجد الناس عندها أنهم لا يجنون فائدة كبرى من الانتقال إلى الولايات المتحدة.

لذا أعتقد فعلاً أننا لن نبلغ نقطة التوازن إلا عندما يشعر الناس في المناطق الشمالية والوسطى من المكسيك بأن لديهم نفس النوع من شبكة الصحة والتعليم والسلامة الموجود في الولايات المتحدة.

وقف الهجرة غير الشرعية

مدير الحوار: تحدثنا كثيراً عن المكسيك، لكننا نعلم جميعا أن هناك ضغوطاً كبيرة من العديد من البلدان. ونعرف أن العديد من الأشخاص من غير المكسيكيين يستخدمون الحدود المكسيكية للدخول بصورة غير شرعية إلى الولايات المتحدة، فما هي الآلية التي تستطيع الولايات المتحدة تطبيقها لمعالجة أمر الهجرة غير الشرعية ؟

فيديو

السيد بارون: حسناً، بوسعنا أن نكون متشددين أكثر بالنسبة لحماية الحدود. وهذا ما حصل عملياً خلال السنوات العشر الأخيرة. فقد استجابت حكومة الرئيس كلنتون وحكومة الرئيس بوش للوضع. لقد بنينا الجدران في المناطق المزدحمة بالسكان على الحدود بالقرب من سان دييغو. وعززنا السيطرة على الحدود في إل باسو، في بعض الأجزاء من جنوب تكساس.

وأعتقد أنه ربما كان بإمكاننا تعزيز السيطرة على الحدود إلى حد أكبر، لكننا فعلنا الكثير حتى الآن في هذا المجال. أما الوسائل الأخرى لفرض القانون فتمكن في قيام دائرة الهجرة والتجنس بتخصيص بطاقات لأصحاب العمل، والتحقق من الهوية، والتحقق من الوثائق، وترحيل المهاجرين غير الشرعيين. إلاّ أنني لا أعتقد أن هذا تدبير العملي أو ممكن التطبيق نظراً لمستويات الهجرة غير الشرعية الحالية. وأعتقد أنه إذا كان هذا البلد يريد جعل هؤلاء الناس قانونيين، فإن علينا تنظيم الوضع، وإعادة جعل قوانيننا متساوقة مع أسواق العمل لدينا.

مدير الحوار: د. هانسون، ما هي الحلول العملية لذلك في رأيك؟

فيديو

د. هانسون: أظن أن هناك ثلاثة أو أربعة أشياء يمكن القيام بها. وأحدها هو بالطبع، كما قال مايكل، فرض العقوبات على أصحاب العمل. إن المشكلة الآن تكمن في أن بطاقات الهوية (وثائق التعريف عن الهوية) تُزوّر بسهولة. يجب أن يكون لدينا نوع من بطاقات الهوية المأمونة (التي لا يمكن تزويرها). وإذا كانت هناك غرامات باهظة على أرباب العمل الذين يشغّلون عمالاً غير شرعيين، فإن ذلك سيكون عاملاً مساعداً.

علينا، ثانياً، أن نُغيّر الحسابات في الولايات المتحدة بشكل يبعث برسالة إلى المكسيكيين في المكسيك تقول إن عليكم، إذا دخلتهم البلاد كعمال، أن تتعلموا الإنجليزية، وأن تضعوا أولادكم في مدارس يتعلمون فيها اللغة الإنجليزية بالكامل بشكل مكثف، وأنه لن يكون باستطاعتكم تكرار خلق نسخة عن ثقافتكم المكسيكية.

أعتقد، ثالثاً، أنه من المهم جداً العمل في سبيل التنمية الاقتصادية مع المكسيك. وقد شاهدنا القليل من ذلك يحدث في المناطق المحاذية للحدود.

لو كانت هناك حصة (كوتا) من 250,000 أو من 100,000 مهاجر شرعي لكانت هذه رسالة موجهة إلى المكسيك تقول لهم إنهم لن يحصلوا، لأول مرة خلال ثلاثة عقود، على اثني عشر ملياراً كاملة من النقد الأجنبي (التحويلات)، وأن عليهم أن يعالجوا مشاكلهم لأنهم لن يتمكنوا بعد الآن من الاعتماد على تصدير المعارضين السياسيين والحصول بالمقابل على مليارات الدولارات من النقد الخارجي.

ملاحظة أخيرة حول العفو العام. أشار مايكل إلى نقطة هامة. لن نذهب إلى مقاطعة فريزنو، وإلى بلدتي ونطرد إنساناً في الستين من عمره يقيم هناك بصورة غير شرعية ونرسله مع غيره في أوتوبيس إلى تيخوانا. هذا عمل غير إنساني.

لكن العفو العام الذي صدر في الماضي كان، من جهة ثانية، عفواً دوّاراً. فكل قانون من القوانين الفدرالية التي أُقّرت أصدرت عفواً بدلاً من إدخال التغييرات. إن التغييرات لا تحصل أبداً، لكن العفو العام يحصل فيستقطب حتى أعداد أكبر من الناس عبر الحدود.

وعليه، إذا اجمع كل الفرقاء على أن هذا هو آخر عفو نمنحه، وأنه سيتم إدخال تغييرات جذرية على جبهة فرض القانون والكوتا الشرعية للمهاجرين، أعتقد أنه سيصبح لدينا بعض التشريعات المناسبة.

السيد بارون: سيترتب علينا، إذا كنا سنطبق فعلياً كوتا من 250,000 شخص على المهاجرين من المكسيك، تعديل بنود لم شمل العائلات في قانون الهجرة الحالي، لأن تلك هي البنود التي يأتي على أساسها معظم المهاجرين من أميركا اللاتينية، المهاجرين الشرعيين، إلى البلاد.

الهجرة - ليست قضية يسار أو يمين

مدير الحوار: أود اختتام الحوار بسؤال أخير. إن هذه ليست إذن قضية يتنازع حولها الليبراليون والمحافظون، أو قضية ينقسم حولها اليسار واليمين في الولايات المتحدة (كما تميل هذه القضايا) لأن تكون؟

السيد بارون: أظن أن هذا نقاش يدور في نطاق مختلف ويشارك فيه طيف مختلف من المتحاورين. لقد كان هناك عبر تاريخ أميركا، أو على الأقل منذ الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر عندما بدأت تصلنا أعداد كبيرة من المهاجرين من إيرلندا، وثقافات أخرى مختلفة عن الثقافة القائمة في الولايات المتحدة، حركات أهلية شعبية تريد استبعاد المهاجرين جملة وتفصيلاً.

كما كان هناك أناس يؤيدون تشريع الأبواب ببساطة أمام الهجرة، وهو إلى حد كبير ما عشناه خلال السنوات التي سبقت قوانين الهجرة لسنتي 1921 و 1924.

فكما وصف الأمر فكتور هانسون، انضم الذين يؤيدون اقتصاد الأسواق الحرة، مثل الراحل روبرت بارتلي من وول ستريت جورنال، إلى الذين يؤيدون هذا النوع من قومية المهاجرين، مثل أساتذة الدراسات المكسيكية (التشيكانو).

د. هانسون: أعتقد أن هذا صحيح. أريد فقط إضافة تعليق أخير وهو أنني أظن أن الأمر مرتبط أيضاً إلى حد ما بالطبقات الاجتماعية. فأنا أعتقد أن الناس، من كلا اليسار واليمين، من أرباب العمل، ومن المثقفين، والأساتذة يميلون إلى الاستفادة من الهجرة غير الشرعية، إما بشكل مباشر مثل حال بعض أرباب العمل، أو أنهم ينظرون، من الناحية الفكرية، إلى الهجرة على أنها جزء من شيء إيجابي.

لكنني أعتقد أن لدى الناس الآخرين من الطبقات العاملة الذين يتنافسون (مع المهاجرين) على الوظائف، أو ينتمون إلى أعراق مختلفة، أو يقلقهم التعقيد المتغير لمجتمعاتهم، لديهم مخاوف مشروعة.

وهكذا، فإنني أصبحت بفضل الخبرة التي جنيتها من التحدث إلى آلاف الأشخاص حول هذا الموضوع، شبه قادر على التكهن، بناء على مستوى دخل الشخص، بما سيكون عليه موقفه (من الهجرة) وبالعمل الذي يمارسه.

الآراء الواردة في هذا المقال لا تعكس بالضرورة وجهات نظر أو سياسة الحكومة الأميركية.

وادٍ في كاليفورنيا

جيمس هيوستن

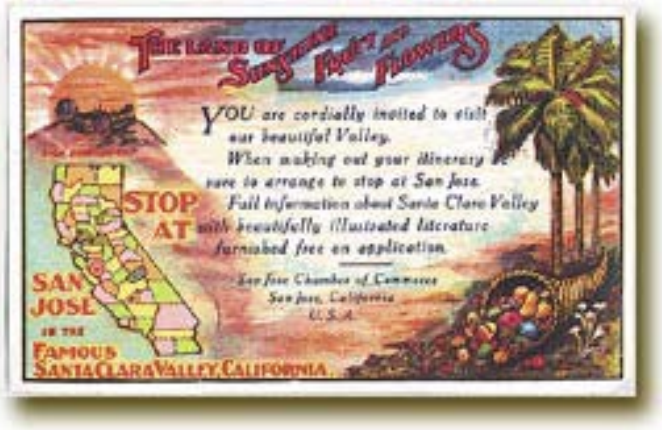

بطاقة بريدية ترويجية لغرفة تجارة تعود للعقود الأولى من القرن العشرين، تبرز السحر الريفي لوادي سانتا كلارا. (بالإذن من موقع تاريخ سان خوزيه على الإنترنت)

يقول الكاتب إن موقع كاليفورنيا الجغرافي الفريد، المُحاذي لأميركا اللاتينية والمواجه في نفس الوقت للمحيط الهادي، شكل ثقافة غنية ونشيطة. وهو يتذكر التغيّرات العديدة الحاصلة هناك في الديموغرافيا وفي المشهد الطبيعي، خصوصاً في منطقة وادي سانتا كلارا حيث ترعرع. كتب يقول، «قصة هذا الوادي هي قصة كاليفورنية كلاسيكية، مما يعني أنها تزخر بمفارقات أراضٍ كانت تجد لنفسها دوماً طريقة لاختراع نفسها من جديد». فعلى غرار عدد كبير من المناطق في أميركا القرن الواحد والعشرين، باتت كاليفورنيا «الآن موطناً لعائلات من غواتيمالا والسلفادور، ومن الأردن وأفغانستان، ومن ساموا وتايوان وكامبوديا». ويضيف، أنه بالنظر لتنوع كاليفورنيا الاثني المتزايد أبداً، ربما كانت أكبر التحديات التي تواجهها الآن تكمن في «أن نتعلّم العيش معاً في هذا العالم الجديد المتعدد الثقافات الذي لا يزال يكشف لنا عن تعدّديته الثقافية، بحيث يُعلّم واحدنا الآخر كيفية الإصغاء وكيفية النظر عبر الحدود التي كثيراً ما كانت تفصلنا عن بعضنا بعضا.»

انتقل والدي إلى كاليفورنيا من أوكلاهوما خلال فترة الركّود الاقتصادي الكبير في الثلاثينات من القرن الماضي. وعلى غرار الكثير من الآلاف الآخرين، كان هارباً من القحط ومن الأراضي الزراعية الجافة في «الغبراء» (أي المنطقة المجدبة) ومتوجهاً غرباً بحثاً عن أيام أفضل. ورغم أنه لم يعبر حدوداً قومية للوصول إلى كاليفورنيا لكنه اجتاز صحراء وسلسلتين من الجبال. وفي تلك الأيام، السابقة للطائرة النفاثة وللسيارات ذات المقود المؤازر، كان ذلك انتقالاً كبيراً محفوفاً بالمخاطر. كانت الوظائف نادرة، وكان يُنظر إلى «الأوكيز»، أي المزارعين الفقراء، خاصة من ولاية أوكلاهوما، الذين أجبرهم الجفاف على النزوح، كلاجئين – غير مرغوب فيهم. لكنه جاء رغم كل شيء، يائساً، كما يأتي المهاجرون في الكثير من الأحيان، بحثاً عن طريقة ما لتغيير حظه.

وجد والدي، في نهاية الأمر، عملاً كدهّان منازل. ثم جلبت فترة تعزيز القدرة الدفاعية للحرب العالمية الثانية ازدهاراً جديداً إلى الساحل الغربي الأميركي. وبحلول عام 1948، كان والدي قد ادخر ما يكفي من المال لتسديد القسط الأول من ثمن قطعة أرض في وادي سانتا كلارا– هي عبارة عن منزل في مزرعة، مع عدد قليل من المباني الخارجية الملحقة وهكتاران من البرقوق الأرجواني الداكن الذي يُصنع منه أفضل البرقوق المُجفّف. ورغم أن والدي كان قد أصبح دهاناً ولم يعد يعمل كمزارع، إلا أنه احتفظ بحبه للحياة الريفية.

وقد منحته تلك الهكتارات قطعة صغيرة مما كان يُسمى آنذاك «أكبر بستان فاكهة في العالم». وتشتهر كاليفورنيا بمثل هذه الادعاءات المضخمة المبالغ فيها. لكن هذا الادعاء كان صحيحاً. فخلال نصف قرن أو أكثر، امتلأ السهل الشاسع والخصب في وادي سانتا كلارا، الذي كان في الماضي السحيق الطرف الجنوبي الذي يترسب فيه غرين خليج سان فرانسيسكو، بستة ملايين شجرة فاكهة. وكان يمكن للمرء آنذاك مشاهدة معظمها من طريق ريفية تسير بمحاذاة سفوح التلال الشرقية. وكانت هذه الطريق تُسمى «بلوسوم هيل رود» أو طريق تلة براعم الأزهار. وكنا في كل موسم ربيع نتكدس في سيارة والدي، أنا ووالدتي وشقيقتي وجدّتي، لنذهب في رحلة حجّ لمشاهدة بداية تفتح أزهار الأشجار المثمرة. وكنا نجد عادة أن آخرين قد وصلوا قبلنا وأوقفوا سياراتهم في أعلى الطريق. فكما يسافر الناس الآن إلى شمال شرق الولايات المتحدة بهدف مشاهدة أبدع لحظات ألوان الخريف الزاهية (متألقة على أوراق شجر القيقب)، كان الناس يأتون إلى هنا من مناطق قريبة وبعيدة لمشاهدة روعة بانوراما براعم أزهار الأشجار المثمرة البيضاء والزهرية اللون، متفتحة على أشجار البرقوق والأجاص والتفاح والكرز، مشكلة بحراً داخلياً من زغب الأزهار.

كان هذا احتفالاً موسمياً لتكريم انبثاق فترة الجمال القصيرة والمحصول الذي سيتبعها قريباً. ورغم أن مناخ هذا الوادي يشابه مناخ البحر المتوسط، فإنه لم يكن مُجرّد ملجأ ريفي بعيد عن مراكز التجارة. وكان مركزه التجاري في سان خوزيه، المدينة الصغيرة والمزدهرة التي يسكنها 70,000 نسمة تقريباً، والتي كانت تتصدر العالم في صناعة الفاكهة المعلبة والمُجففة. وكان قد تم هنا ابتكار ماكينات غيّرت الطريقة التي تُجمع فيها المأكولات وتُحفظ. وخلال سنوات دراستي الثانوية والجامعة، كان معظمنا يحصل على مدخوله الصيفي عن طريق العمل في بساتين الفاكهة، في قطف الخوخ / الدّراق إلى جانب العمال المهاجرين من المكسيك ونشر المشمش في أوان مسطحة لتجفيفه في الشمس، أو عن طريق العمل في أحد معامل التعّليب العديدة التي كانت تحيط بالمدينة. فمن هنا كانت تشحن علب أنصاف الأجاص المخزونة في القطر، وشراب رحيق الدّراق، والبرقوق المغلي أو المجفف، وصلصة التفاح، وكوكتيل الفواكه، إلى كافة أنحاء الولايات المتحدة وإلى مختلف أنحاء العالم أيضا.

إغراء الغرب الذهبي

عندما يدخل المرء الوادي بسيارته اليوم يدخل عالماً من نوع آخر له هوية مختلفة ومظهر مختلف واسم مختلف. ولا زال يؤطر الوادي، من جهتي الشرق والغرب ذراعان من سلسلة جبال كاليفورنيا الساحلية الطويلة. لكن الطرقات الريفية مثل بلوسّوم هيل، التي كانت في الماضي تربط بين المزارع ومزارع تربية الخيل والمواشي، أصبحت تعج الآن بالمنازل الفخمة وأبنية الشقق السكنية، والحدائق العشبية وطرق الدخول إلى آلاف التقسيمات العقارية الصغيرة. ويعيش حالياً في الوادي حوالي مليوني نسمة. وهو، مثل مقاطعة لوس آنجلس كاونتي التي تقع على مسافة 480 كيلومتراً إلى الجنوب، بمثابة رقع متصلة من الضواحي المتلاصقة مع إشارات لـ«حدود المدينة» لإعلامك فقط أين تنتهي إحداها وأين تبدأ المدينة التالية. أما سان خوزيه، التي لا تزال المركز التجاري الواسع، فقد أصبحت المدينة الأميركية الحادية عشرة من حيث الحجم. كان تحوّل المنطقة كاملاً لدرجة أن ما تشاهده من أعلى طريق بلوسّوم هيل الآن هو بحر من السقوف المائلة المصنوعة من خشب الأرز وصحون الأقمار الصناعية، تتلألأ فيه هنا وهناك ومضة حوض سباحة في فناء خلفي لأحد المنازل.

لقد ضاع منظر الربيع الرائع ذلك منذ وقت طويل ولن يعودا أبداً، وقد فات الآن أوان التفجع على الخسارة، وفات وقت الندب أو التوّق إلى الماضي. إن كاليفورنيا أرض يقودها النمو الجامح لدرجة أن معدل التغيير الذي لا يلين نفسه يمكن أن يغمرك دون أن تستطيع له مقاومة. وأنا ممتن لأنه سنحت لي فرصة رؤية بحر أزهار الأشجار المثمرة قبل أن تختفي.

خلال الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي، استمر مجيء من اشتروا الأراضي، مثل والدي، من أنحاء كاليفورنيا الأخرى، ومن أنحاء الولايات المتحدة الأخرى، ومن مختلف أنحاء العالم، يسعون إلى امتلاك قطعة من الغرب الذهبي. وكان الوادي على مسافة ساعة فقط من مدينة سان فرانسيسكو. والمناخ، الذي أعجب أصحاب مزارع الخيول والماشية كثيراً، استهوى القادمين الجدد أيضاً. وكان سكان كاليفورنيا يتزايدون بمعدل ألف شخص في اليوم (وهو معدل ارتفع اليوم إلى 1500 في اليوم، كل يوم من كل أسبوع، من كل سنة)، وازداد عدد سكان الوادي مع ازدياد عدد سكان بقية أنحاء الولاية، مما ابتلع بشكل منتظم بعض أخصب المناطق الزراعية على وجه الأرض وأكثرها إنتاجية. وبكل بساطة، لم تستطع قيمة الأراضي الزراعية منافسة ثمن العقارات المتزايد باستمرار.

ولو كان والدي اليوم حياً لفوجئ، ولربما غضب، لو قيل له إنه لعب دوراً في آلية تحول الوادي إلى ما هو عليه اليوم، دوراً صغيراً ولكنه رمزي. كان والدي يعشق منظر أشجار البرقوق المُزهرة؛ وكان يعتني بها كلما استطاع ذلك. لكنه لم يكن مزارعاً؛ كان متعهد دهان لديه عائلة يعيلها. وكان من وقت لآخر يبيع ربع هكتار. وعندما كانت تتم إعادة تقسيم وتخصيص المناطق ويعاد تخمين ثمنها، كان من اشتروها يعاودون تقسيمها إلى قطع أصغر ويبيعونها. عندما أذهب إلى حينا اليوم، أرى أن الهكتاريّن اللذين كانا يزخران بأشجار البرقوق تحولا اليوم إلى 15منزلاً مع 15 كاراجاً يتسع كل منهم لسيارتين، و15 حديقة عشبية مع 15 نظاماً لري العشب. ومن المؤكد أن والدي الآتي من أوكلاهوما كان سيتأوه عند رؤيته هذا المشهد، لكن من كان بوسعه، عندما باع القطعة الأولى من أرضه، أن يعرف ما سيؤدي إليه ذلك؟ كان بحاجة إلى المال وكانت لا تزال هناك أشجار تئن بحمولتها من الفاكهة منتظمة في صفوف على مدّ النظر.

أميركي فذ:، روح المبادرة الفردية

أسس وليام (بيل) هـ. غايتس، بوحي من إيمانه بأن الكومبيوتر الشخصي سوف يكون أداة أساسية في المنزل وفي العمل، شركة لبرامج الكومبيوتر مع صديق طفولته بول آلن سنة 1975. وقد نما ما أوجداه، شركة مايكروسوفت كوربوريشن، بسرعة ليصبح أكبر شركة من نوعها في العالم، وهي تُوظف في الوقت الحاضر أكثر من 55,000 شخص في 85 بلداً حول العالم. بدأ غايتس، المولود سنة 1955، وضع برامج للكومبيوتر عندما كان في الثالثة عشرة من عمره وطوّر خلال وجوده في الجامعة، نسخة من لغة «بيسك» لبرمجة الكومبيوتر (BASIC) لأول كومبيوتر مصغّر (مايكرو كومبيوتر). وقد تشاطر غايتس رؤيته حول وعد الكومبيوتر من خلال إصداره لكتب في 25 لغة، وعبر مساندته التكنولوجيا في التعليم، وعبر شركة كوربيس (Corbis)، الشركة التي أسسها والتي تقوم بتطوير واحد من أكبر الأرشيفات الرقمية للمعلومات البصرية. كما تشاطر ثروته، عبر «مؤسسة بيل وميلندا غايتس» (الخيرية)، التي خصصت أكثر من 3,2 مليار دولار لمنظمات تعمل في ميدان الصحة العالمية، وأكثر من ملياري دولار لتحسين فرص التعليم.

عقود من التغيير

قصة هذا الوادي قصة كاليفورنية كلاسيكية، مما يعني أنها تزخر بمفارقات منطقة تجد دائماً طريقة لإعادة اختراع نفسها. فأثناء شق الطرقات فوق مصدر رزق ثمين وتفكيك صناعة عالمية المستوى، كانت هناك صناعة أخرى قد بدأت بالبروز إلى جانبها. فمما سارع في ارتفاع أسعار العقارات الكبير وازدياد عددها الحماس والوعد بالنجاح الاقتصادي الذي انطوت عليه الاختراعات التكنولوجية، اللذان تولدا في نفس مناخ الإبداعية الذي جعل من ذلك الوادي قوة زراعية.

فهنا، طوّر المهندسون الذين تبعوا وليام شوكلي الحائز على جائزة نوبل، عندما انتقل من مختبرات بِل (Bell Labs) إلى الغرب، دائرة إلكترونية متكاملة. وهنا اخترع مهندسو شركة إنتل (Intel) جهاز المعالجة الدقيقة (المايكروبروسسّور). وطوّر ستيف جوبس وستيف فوسنياك، بينما كانا يعملان في كاراجهما الأسطوري، الكومبيوتر الشخصي، وأسسا شركة آبل كومبيوتر (Apple Computer). وهنا اخترعت شركة سيسكو سيستمز (Cisco Systems) أقنية التوجيه التي توجه السير عبر الإنترنت. وإذ كان وادي سيليكون في مقدمة الثورة التكنولوجية المتقدمة، اجتذب مليارات الدولارات من رؤوس الأموال المغامرة وجيلاً جديداً من الساعين وراء الثروة.

وهكذا فإنه في حين تم اقتلاع الأشجار المثمرة في البساتين الكبيرة والصغيرة، وتم التخلص منها، أصبح هناك المزيد من كل شيء آخر، المزيد من المال، والمزيد من أصحاب الملايين، والمزيد من البيوت الأنيقة الجاثمة على التلال المطلة على المناظر الطبيعية، إلى جانب المزيد من الناس المشردين دون مأوى، والمزيد من الجرائم، والمزيد من السيارات، والمزيد من جنون الطرقات، والمزيد من أعداد الطلاب المؤهلين الذين لا تستطيع الكليات الأهلية ولا جامعات الولاية استيعابهم. لكن جاء مع هؤلاء مزيد من الحفلات الموسيقية، والمجلات الأدبية، والمسرحيات وفرق الرقص (مركز جديد للفنون الادائية، وقاعات جديدة لعرض الأعمال الفنية، ومكتبات جديدة)، ومزيد من الأسر القادمة من مزيد من البلدان، حاملة معها العديد من التواريخ من كل الاتجاهات، الشمال والجنوب والشرق والغرب. وقد شكل موقع كاليفورنيا الجغرافي الفريد – المحاذي لأميركا اللاتينية والمواجه في نفس الوقت للمحيط الهادئ – ثقافة ملتقى طرق غنية ونشيطة. ومرة أخرى، يعكس الوادي صفات السكان في كل أنحاء الولاية.

نظرة إلى الماضي

كان الهنود (الحمر) هنا أولاً، وكانوا صيادين وجامعي ثمار ونباتات تنقلوا في السهول المُنقّطة بشجر السنديان طيلة آلاف السنين. وما زال يقطن الوادي عدة مئات من المتحدرين من تلك القبائل القديمة. وفي عام 1769، وصل الجنود الإسبان سيراً على الأقدام من المكسيك وسرعان ما تبعهم المستعمرون على عربات تجرها الثيران باتجاه الشمال ليؤسسوا «إل بويبلو دو سان خوزيه دو غوادالوبي»، وهي قاعدة أمامية كانت الغاية منها تشجيع الاستيطان وتأمين المنتجات للإرساليات الفرانسيسكانية التي تأسست هناك لتنصير الهنود الحمر. وقد أُطلق على إحدى تلك القواعد (سنة 1777) اسم سانتا كلارا دو آسيس.

وقد ظلت كاليفورنيا برمتها لغاية سنة 1848، مقاطعة شمالية مكسيكية، وكانت الإسبانية لغتها الرسمية. (وهي الآن اللغة التي يتعلمها أولاً عدة آلاف من السكان). وقد أطلق اكتشاف الذهب في كاليفورنيا موجة هجرة كبيرة إذ استقطب الأمل بالإثراء السريع الأعداد الكبيرة التي انطلقت عبر القارة من الولايات الأميركية الشرقية، وبالبواخر من أوروبا، ومن تشيلي والبيرو، ومن الصين وماليزيا وجزر المحيط الهادئ. ولم يمض وقت طويل إلا وكان المهاجرون من فرنسا وإيطاليا قد بدأوا يزرعون كروم العنب في وادي سانتا كلارا حيث كانت التربة والمناخ يذكرانهم بالأرض التي غادروها. ومن المرموقين بينهم، بول ماسون، الذي اتخذ من سان خوزيه مقراً له وأدخل إنتاج الشامبانيا إلى الولايات المتحدة.

وابتداء من ذلك الاندفاع بحثاً عن الذهب وفي كل ما تلاه من موجات، كان معظم المستوطنين–المزارعين ومربّي الخيول والمواشي الذين طوروا الوادي – من ذوي الخلفية الأنغلو – أوروبية. لكن عندما وصلت عائلتي إلى هناك، كان التنوع قد أصبح منذ زمن سمة المنطقة المميزة. وخلال سنوات دراستي الثانوية والجامعية، في الخمسينات من القرن الماضي، كان لي أصدقاء جاء ذووهم من صربيا ومن جزر الآزور، ومن هاواي، والفيليبين، والمكسيك، وكوبا، والصين، واليابان.

بعد ذلك بخمسين سنة، أصبح هذا عالماً لن يكون بمقدور والدي التعرف عليه. فهو،على غرار العديد من مناطق أميركا القرن الواحد والعشرين، عالم متعدد الثقافات وموطن لأسر من غواتيمالا والسلفادور، ومن الأردن وأفغانستان، ومن ساموا وتايوان وكامبوديا. ويزيد عدد المهاجرين من فيتنام الآن عن عدد كامل سكان الوادي عندما كنت طالباً. ولدى المهاجرين من الهند أربع مجلات دورية محلية. وعلى امتداد ثلاثة مجمعات بنايات في جادة رئيسية، تجد نصف اللوحات فوق مداخل الحوانيت والمطاعم مكتوبة بالأحرف الكورية، وبعضها بدون ترجمة بالإنجليزية. ويتم الاحتفال بيوم الخامس من أيار / مايو، اليوم الذي تحتفل فيه المكسيك بانتصارها على القوات الفرنسية سنة 1862 في معركة بويبلو، من خلال مهرجان واستعراض كبيرين.

نظرة إلى المستقبل

بعد قرن ونصف من الاستيطان المستمر، تجري الآن تجربة اجتماعية هائلة في وادي سانتا كلارا، وفي باقي أنحاء كاليفورنيا أيضا. فحتى عهد قريب، لم تضم أي منطقة تقريباً إطلاقاً بين ربوعها سكاناً من مثل هذا العدد الكبير من الخلفيات المتباينة الساعين إلى العثور على سبل للتعايش. ويبدو هذا، بالنسبة للبعض كتهديد – بعد أن لم يعد البيض يُشكلّون أكثرية إثنية.

غير أنني أرى، من خلال تجربتي، أن هذا في حد ذاته لا يشكل سبباً لذعر كبير.

إن خلفية زوجتي يابانية. وقد التقينا خلال سنوات دراستنا الجامعية عندما كان والدها، وهو رجل من هيروشيما انطلق باتجاه الشرق عبر المحيط الهادئ في مطلع القرن العشرين لنفس الأسباب التي دفعت والدي باتجاه الغرب، يعمل في زراعة الفراولة بالقرب من سفوح التلال الشرقية. أولادنا الثلاثة أوراسيون (أوروبيون–آسيويون). وحين جلسنا حول المائدة نحتفل قبل وقت قصير بأحد الأعياد، كانت معنا على مائدة العشاء زوجة ابني، وهي نصف صينية، وزوج ابنتنا البكر، وهو يهودي. وبصفتي ابن أوكي (مزارع فقير من أوكلاهوما) ولي أسلاف اسكتلنديون – إيرلنديون، كنت أقلية إثنية حول مائدتي الخاصة. وبوسعي أن أشهد أنه بالإمكان تمضية مثل هذه الأمسية والاستمتاع في الواقع بوجبة الطعام.

لقد حان الوقت لإعادة النظر بتعبير «أقلية»، لأنه يدور حول أكثر بكثير من الأرقام وحدها. وبالنسبة لنا نحن الذين كنا لزمن طويل في «الأكثرية»، يمكن أن يكون للتعبير وقع ينذر بالسوء، يعني فئة أقل قيمة وأهمية، فئة تحتل مكانة هامشية، خارج إطار الاتجاه السائد. لكن ماذا لو تخليّنا عن الكلمة وفتّشنا عن طرق أخرى لوصف أنفسنا وفروقاتنا ؟ إن التعبير مفيد فقط عندما تكون هناك أكثرية يمكن المقارنة بها. فإذا لم تعد هناك أكثرية إثنية في ولاية كاليفورنيا، يصبح التنوع (أو التعددية) هو القاعدة والاتجاه السائد، ونقترب قليلاً جميعاً عندها من فئة تجمعنا جميعا، فئة تضم أناساً متنوعي اللون والخلفيات صدف أنهم يقطنون في نفس المنطقة.

إن هذا لا يعني التقليل من أهمية التوترات الخطيرة القائمة في الجو وفي الشوارع. كلما عدت لزيارة المكان الذي ترعرعت فيه، يبدو لي أن من بين جميع التحديات التي تواجه سانتا كلارا / سيليكون فالي، ربما كان التحدي الأكبر تعلّم كيفية العيش معاً في هذا العالم الجديد العديد الثقافات الذي لا يزال يكشف عن تعدديته الثقافية، وتعليم بعضنا البعض كيفية الإصغاء، وكيفية النظر عبر الحدود التي فرقت بيننا في الكثير من الأحيان.

جيمس د. هيوستن مؤلف سبع روايات بما فيها ثلاثية «الإنجراف القاري»، و«حياة حب» و «الجنة الأخيرة» التي حازت على جائزة الكتاب الأميركي لسنة 1999. وبين أعماله العديدة الأخرى غير القصصية، «الكاليفورنيون، رحلة في حوض الباسيفيكي» و «وداعاً لمنزنار» وهو كتاب ألفه مع زوجته، جين واكَتسوكي هيوستن. درّس جيم الكتابة في جامعة كاليفورنيا–فرع سانتا كروز طوال أكثر من 20 سنة، وعمل أيضاً كموسيقار ودرّس العزف الكلاسيكي والشعبي على الغيتار. يعيش جيم وجان في سانتا كروز بولاية كاليفورنيا.

ملحوظة: لا تعكس الآراء الواردة في هذا المقال بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية

بلدة في وست فرجينيا

هنري لويس غايتس جونيور

بطاقة بريدية قديمة تظهر هذا المنظر الريفي لبيدمونت، حوالي سنة 1920

(بإذن من بلاكوود أسّوشياتس)

يعكس الكاتب هنري لويس غايتس جونيور، في مقتطفات من مذكراته بعنوان «الناس الملونون»، الصادرة سنة 1994، صورة طفولته في المجتمع الريفي الصغير في بلدة بيدمونت، بولاية وست فرجينيا، خلال السنوات التي سبقت حركة الحقوق المدنية التي أدت إلى تحقيق الدمج العنصري في الولايات المتحدة. تبدأ تأملاته ببعض الملاحظات التمهيدية الموجّهة إلى ابنتيه،ثم تتواصل لتقدّم لمحة خاطفة عن مكان، مع كل تداعياته الاجتماعية والسياسية والجغرافية. ويصف مارك جاكوبس في ملحق للمقال، زيارته الأخيرة لبيدمونت وكيف تغيرت البلدة، وكيف لم تتغيّر، منذ أيام طفولة هنري لويس غايتس جونيور ولغاية اليوم.

تمهيد

عزيزتيّ ماغي ولايزا:

كتبت لكما لأن العالم الذي وُلدت فيه، العالم الذي تعهدني بالرعاية وقام بأودي وأبقاني على قيد الحياة، قد اختفى بصورة غامضة. تعود أعمق مخاوفي إلى أن بلدة بيدمونت، في وست فرجينيا، سوف تزول من الوجود في حال قرّر بعض مدراء الشركات في شارع بارك أفنيو أن بناء مصنع جديد كامل للورق في مكان آخر (غير بيدمونت) بدلاً من إصلاح مصنع قديم هناك عمره قرن سيدر عليهم أرباحاً أكبر. في هذه الحال سوف يغلقون المصنع تماماً كما سبق لهم أن فعلوا في كامبرلاند مع شركة «سيلانيز» وفي بيتسبيرغ مع شركة«بيتسبيرغ بلايت غلاس»، ومع «شركة إطارات كيلي - سبرنغفيلد». سوف تموت البلدة، لكن سكانها لن ينتقلوا إلى مكان آخر. لن يقبلوا أن يُنقلوا، لأن بيدمونت المستكنة بين جبال أليغاني ووادي نهر بوتوماك، تمثل الحياة بالذات بالنسبة لهم.

أنا لست زنجياً ككل الزنوج. فأنا لست من مواليد المدن الكبرى السوداء: نيويورك، أو شيكاغو، أو لوس آنجلس، مثلاً، كما أنني لا أدّعي أنني «مواطن من العالم». أنا من زمان ومكان اسمه بيدمونت، في وست فرجينيا، وهو عالم منفصل عن غيره، عالم مختلف. ليست هذه إذاً قصة عرق، بل قصة قرية وعائلة وأصدقائها. ونوع من السلام المنفصل عنصرياً.

أظن أنكما ستتحولان خلال حياتكما من أميركيتين إفريقيتين إلى «أناس ذوي لون» لكي تصبحا، من جديد «الناس الملونين» (فالميل اللغوي إلى التكثيف قوي). وأنا لا أعارض شخصياً أياً من هذه التسميات، لكن عليّ أن أعترف أنني أفضّل «الملونين» ربما لأنني عندما أسمع هذه الكلمة أسمعها بصوت والدتي، وباللون البني الداكن (كلون الصور القديمة) لطفولتي. لقد حاولت، بكل ما أمكنني من بساطة وصدق استحضار عالم الملونين في الخمسينات من القرن الماضي، وعالم الزنجي في مطلع الستينات، وحلول عالم السود في أواخر الستينات، من وجهة نظر الصبي الذي كنته آنذاك.

الناس الملونون

تقع بيدمونت بوست فريجينا على جانب تلة في جبال أليغاني، على مسافة ساعتين ونصف إلى الشمال الغربي من واشنطن وإلى جنوب شرق بيتسبيرغ، مغطية الأرض الواقعة على امتداد قمة جبل «أولد بالدي» كما تغطي طبقة كثيفة من الزبدة الجانب الخشن لقطعة خبز من نوع «باركر هاوس» (كان عدد سكانها 2565 نسمة سنة 1950 عندما وُلدت)، وكانت ثاني أكبر مدينة في مقاطعة مينرال. وتشتهر (ولاية) وست فرجينيا بتلالها، أي بجبال أليغاني، التي تمتد على طول نهر البوتوماك شرقاً، ونهر أوهايو غرباً ونهري كاناوها وغياندوتي جنوباً. ومن بين جميع سلاسل الجبال التي يشاهدها السكان الذين يعيشون على ضفاف الأنهار في الجبال المجاورة، ليس هناك أجمل من الفرع الجنوبي

لوادي بوتوماك الذي تطل عليه «غايتس بوينت»، أعلى قمة في المقاطعة، حيث ترتفع فوق جدول باترسون كريك.

عاش معظم الناس المُلوّنين بمقاطعة مينرال في بلدة بيدمونت، 351 نسمة من أصل 22,000 نسمة يشكلون مجمل عدد سكان المقاطعة.

ولا شك في أن بيدمونت تبدو، بالنسبة لابنتي، بلدة قديمة، جافة، بالية الآجر المهترئ قرميدة بعد قرميدة، تماماً كمدرستي القديمة. تراجع عدد سكانها الآن إلى 1100 نسمة، بينهم 300 من السود، ويرتفع معدل الأعمار فيها سنة تلو السنة بحيث أن الشخصيات الجريئة النشطة التي هيمنت على صغري، أولئك الذين لا زالوا منهم على قيد الحياة على أي حال، سيبدون لابنتي شيوخاً كسا الشيب رؤوسهم. لا، لن يعرف أولادي أبداً بيدمونت ولن يعيشوا سحر المكان الذي لا أزال أشعر به في المكان الذي تعلمت فيه كيف يكون المرء صبياً ملوناً.

كانت الخمسينات من القرن الماضي في بيدمونت أياماً بنية داكنة بلون الصور القديمة، أو هذا على الأقل هو اللون الذي وفّرته لي ذاكرتي. كانت بيدمونت مزدهرة ونامية، قرية لا شك في روعتها. أقول قرية، لكن هذا استخدام غير محبذ لدى البعض. («مدينة من الدرجة الثالثة « هو الاسم الملّطف الرسمي في ولاية وِست فرجينيا).

قرية أو بلدة، أو شيء ما بين الاثنين، لا فرق. كان سكان بيدمونت دائماً يفاخرون بأنهم من بيدمونت المستكينة إلى جدار من الجبال، ملتصقة تماماً بضفاف نهر بوتوماك العظيم. كنا نعرف أن الله لم يمنح أميركا مكاناً أجمل من هذا.

وكانت الطوبوغرافيا الاجتماعية لبيدمونت شيئاً نعرفه بكل حذافيره عن ظهر قلب. كانت بيدمونت بلدة مهاجرين. كانت بيدمونت البيضاء إيطالية وإيرلندية مع عدد قليل من البروتستانت الأنغلو – سكسون الميسورين في شارع «إيست هامبشير، مع أحياء «إثنية» مؤلفة من الطبقة العاملة في كل ا لأمكنة الأخرى، مشكلين من الملونين والبيض.

وكانت صفة بيدمونت المميزة، على امتداد ذاكرة أي إنسان، مرتبطة بالكامل على الدوام بمصنع وستفاكو للورق: ماضيها المزدهر ومستقبلها المشكوك فيه. وتبدو بيدمونت، لأول وهلة، بلدة تحتضر دون اختلاف عن بلدات المصانع المحتضرة الأخرى، مع بنية تحتية في طور الانهيار واستسلام سكانها بوجه أفولها الهادئ. وقد هُجر العديد من المباني التي كانت جميلة في وقت ما، وهي تقبع الآن فارغة مهملة شاهداً على زمن ماض من الجرأة والنشاط والاعتداد بالنفس. لم تعد المنازل الكبيرة في شارع إيست هامبشير تنتصب شامخة، لكنها كانت كذلك عندما كنت صبياً.

في الأيام الساكنة، عندما يكون الهواء ثقيلاً، تفوح في بيدمونت رائحة كرائحة البيض العفن المماثلة لرائحة صف تدريس مادة الكيمياء. فقد كان الهواء يحمل الروائح الكبريتية الحادة المنبعثة من المواد الكيماوية المستخدمة للتبييض في مصنع الورق على طول الوادي فتتغلغل في الجدران والملبوسات والمفروشات وتعشش في جلد الإنسان. ولم يكن بوسع أي عطر إخفاءها تماما. فهي جزء من الوادي تماماً كالنهر، ولم يكن السكان الذين يعيشون هناك يظهرون انزعاجا منها. كانوا يُعلمّوننا أن نقول دفاعاً عنها «إنها تبدو كرائحة المال بالنسبة لي»، حتى عندما كنا أطفالاً. وفي أسفل شارع إيست هامبشير تماماً، وكأن المرء رسم منه خطاً قطرياً بزاوية 30 درجة، كان يقع «بيرل ستريت» الذي كان يسميه السود «طريق ذنب الفأر» لأنه ينساب كالأفعى نزولاً حول التلة إلى قعر الوادي حيث يمر خط سكة الحديد «بي أند أو» (B & O) في اتجاه كايزر، مركز المقاطعة. وكان الفقراء من البيض كأسرة بوني غيلروي يعيشون هناك، إلى جانب خمس عائلات سوداء. وقد انتقلنا إلى هناك عندما كنت في الرابعة من عمري.

هاجر معظم الناس الملونين إلى بيدمونت، مثلهم في ذلك مثل الإيطاليين والايرلنديين، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للعمل في مصنع الورق الذي افتتح سنة 1888. وكان جميع سكان البلدات الثلاث (تراي–تاونز) تقريباً يعملون هناك. وكانت تلك ثلاث بلدات من نفس الحجم، متصلة ببعضها البعض بواسطة جسرين فوق جزئين من نهر بوتوماك، لا يبعدان عن بعضهما البعض إلا أقل من ميل واحد: بيدمونت؛ في (ولاية) وِست فرجينيا؛ ولوك في (ولاية) ميريلاند؛ ووسترنبورت في (ولاية) ميريلاند، وهي أبعد نقطة إلى الغرب صالحة للملاحة على النهر، بين بيتسبيرغ وخليج تشيسابيك. كان الإيطاليون والإيرلنديون... إلى جانب عدد قليل من البيض الأكثر فقراً، يشغلون الوظائف الجيدة في المصنع بما فيها جميع الوظائف التي تشملها نقابات عمال الحرف اليدوية. وكان هذا أمراً مهماً لأن الحرف تتطلب المهارة والتدريب كما أن الحرفيين كانوا يتلقون أجوراً عالية. ولم يتحقق الدمج العنصري في نقابات الحرفيين إلا في عام 1968.

عمل جميع الرجال المُلونين لغاية صيف سنة 1968، «على الرصيف» في المصنع، أي يُحمّلون الورق على الشاحنات ... وكان الإنتاج النهائي لمصنع الورق يُوضّب في صناديق خشبية كبيرة على شكل أقفاص يصل وزن الواحد منها إلى 7000 باوند 3,150 كيلو غرام . وكان يتعين رفع الصناديق بواسطة الرافعات الشوكية من المصنع إلى رصيف الشحن ثم يجري تحميلها على عربات

ضخمة مقطورة بجرارات تنقلها إلى أماكن أخرى. كان التحميل هو ما قام به «دادي» (والدي) في كل يوم من أيام حياته كعامل. وهذا هو ما كان يقوم به تقريباً كل أسود بالغ عرفته. كان أبي يذهب إلى المصنع في كل يوم في السادسة والنصف صباحاً ويعمل هناك لغاية الثالثة والنصف بعد الظهر عندما كانت تُطلق صفارة المصنع معلنة انتهاء ساعات الدوام. وكان المصنع من الأهمية بالنسبة لحياة البلدة لدرجة أن المدرسة كانت تُقفل في نفس الوقت. وكنا نتناول العشاء في الساعة الرابعة كي يتمكن والدي من الذهاب إلى وظيفته الثانية، كبوّاب في شركة الهاتف، في الساعة الرابعة والنصف. كان يوم عمله ينتهي في السابعة والنصف مساءً إلا عندما تكون هناك مباراة بايسبول في أورشارد أو في الحديقة العامة في وسترنبورت، إذ كان يترك عمله مبكراً في هذه الحالة.

أميركي فذ، التغلب على الشدائد

تغلب لانس آرمسترونغ، مظهراً ثباتاً وعزماً ناتجين عن روح تنافسية قوية، على مرض فتاك ليصبح أشهر راكب درّاجة هوائية في هذا الجيل وربما في أي جيل. كان آرمسترونغ المولود سنة 1971 أحد أفضل راكبي الدراجات في العالم عندما عرف، وكان في الخامسة والعشرين، أنه يعاني من نوع خطير من السرطان الخُصيوي. وكان المرض قد انتشر إلى بطنه ورئتيه، كما كان هناك تفش سرطاني يهدد دماغه. وإذ عقد آرمسترونغ العزم على مكافحة المرض، قام بدور نشيط في تثقيف نفسه حول مرضه، وخضع للجراحة وللمعالجة الكيميائية. ثم أسس، حتى قبل شفائه التام، مؤسسة لانس آرمسترونغ لتكون مصدر إلهام للمصابين بالسرطان، وأصبح ناطقاً عالمياً باسم المصابين بالسرطان والعاملين في مجاله. قال آرمسترونغ أن «المعرفة قوة وأن الموقف الذي يتخذه المرء هو كل شيء» بالنسبة لمكافحة السرطان. وقد أثبت صحة ذلك بفوزه بكل دورات سباق الدراجات الذي يحمل اسم «دورة فرنسا» (تور دو فرانس) منذ سنة 1999، وهو أهم سباق عالمي للدراجات الهوائية.

عمل جميع الناس الملونين في بيدمونت تقريباً في مصنع الورق، وكانوا يكسبون نفس المال لأنهم كانوا يقومون جميعاً بنفس العمل، على الرصيف.

لم يكن عالم الملونين حياً سكنياً بقدر ما كان حالة وجود. لكن، وعلى الرغم من أن عالمنا كان يبدو متكاملاً ذاتياً، إلاّ أنه كان يصطدم بالعالم الأبيض في بيدمونت في كل اتجاه تقريباً.

عندما كان والدي مراهقاً، كانت فرق الموسيقى الراقصة تأتي إلى قاعة الرقص في كريستال بالاس في كامبرلاند بولاية ميريلاند، وكانت تعزف لفترة أو فترتين في المساء للسكان البيض، ومن ثم تقدم حفلة خاصة في منتصف الليل للملونين. وقال والدي أن الكل كان يأتي إلى هناك، المشوهون والمرضى، والذين على طريق الموت، وحتى الموتى. ديوك إللينغتون، وكاب كالوي، إضافةً إلى دون رودمان، ابن بيدمونت نفسها. أصبحت لنا لاحقاً أماكننا الخاصة للرقص، أي الرابطة الأميركية للملونين، وعقب ذلك، رابطة المحاربين القدماء في الحروب الخارجية.

وكان يدهشني انتشار الرقصات الجديدة في المجتمعات السوداء، حتى في البلدات الصغيرة مثل بلدتنا. كان كل ما يتطلبه الأمر قيام شخص ما بزيارة لأقاربه في مكان ما، وذهابه إلى حفلة حيث يرى الرقص الجديد. كان يعود بالرقصات هذه ليعلمها للجميع، ويعرضها في الشوارع في الأمسيات أو في حفلة في الدور السفلي لأحد المنازل.

قبل سنة 1955، كان حضور معظم البيض في عالمنا كحضور ظل فقط، شخصيات غير واضحة المعالم تمثل السلطة مثل المدراء المنعزلين في المصنع، أو أمناء الصندوق في المصارف. كانت هناك، طبعاً، استثناءات، فقد كان هناك البيض الذين يأتون إلى عالمنا بطرق رسمية مفروضة بطريقة روتينية وكنا جميعاً نفهمها. السيد (مستر) الرجل ساعي البريد، السيد رجل التأمين، السيد الرجل موزع الحليب العادي أو الحليب المخلوط بالشوكولا، السيد الرجل صاحب المبنى، السيد الرجل الشرطي: كنا نطلق على البيض أسماء مهنهم، وكأنهم شخصيات رمزية في مسرحية بوليسية. كان السيد رجل التأمين يأتي مرة كل أسبوعين لجبي أقساط بوالص التأمين على الحياة أو تأمين (لدفع رسوم) الجامعة، البالغة أحياناً 50 سنتاً أو أقل. لكن زائري الأبيض المُفضل كان رجل شاي الجوهرة الذي كان يصل في شاحنته البنية القاتمة الشبيهة بشكل الخوذة، نوع من سيارات الجيب المُعدّلة، وكان، كبائع سلع متاجر «سيرز»، يأتي بالأدوات المنزلية الجديدة لدارنا. كنت أحب تصفح كتالوغاته. السيد (مستر) رجل شاي الجوهرة، هل تسمح بأن أتصفح كتالوغاتك؟ من فضلك؟

وكنا نصطدم بهذا العالم الأبيض طبعاً في المستشفى في كيزر أو في اتحاد التسليف في وسترنبورت، أو في أحد المخازن في وسط المدينة. لكن أحياءنا كانت مُعيّنة الحدود بوضوح، كما لو كان ذلك بواسطة حبال أو بأبواب دوارة. أهلاً بكم إلى المنطقة المُلونة، هذا ما كان يمكن كتابته على راية كبيرة ممدودة (فوق بوابة الدخول). وكم كنت أشعر بالراحة هناك، نفس الشعور بالراحة الذي يحسه المرء عندما يسير في بيته حافي القدمين وبملابسه الداخلية، أو يغط في النوم شاخراً على الأريكة مقابل جهاز التلفزيون، إنه دفء محبة من تحبهم.

كان الناس في بيدمونت قوميون متشددون – قوميّون لبيدمونت. وكانت هذه عقيدتنا:
«كل ما لدى نيويورك لدى بيدمونت منه، لكن نيويورك لديها منه أكثر. نفس الشي لكنه أكبر. وإذا كنت طالباً: يمكنك أن تحصل على تعليم جيد في أي مكان. لديهم نفس الكتب، أليس كذلك؟ مجرد عدد أكبر من الطلبة في الصفوف، هذا كل ما في الأمر.»

وفي ما عدا ذلك، كان التفوق كله في جانب بيدمونت. هل تعلمون أنه كتب عن شارع «كيني هاوس هيلّ» في مجلة «ريبليز صدّق أو لا تُصدّق»، أنه الشارع الوحيد في العالم الذي تستطيع الدخول منه إلى جميع الأدوار (الطوابق) الثلاثة من نفس المبنى؟ وقد جعله هذا أشهر مكان في تلك المدينة المصنفة في فئة مدن الدرجة الثالثة؛ أما مفاتن بلدتنا الأخرى فلم تحظَ بدعاية كهذه.

نقانق البلولونيا التي كان يصنعها دينت دايفس مثلا، والتي كانت لذيذة لدرجة أن الناس الملونين، عندما كانوا يعودون إلى بلدتهم بيدمونت للاشتراك في نزهة الهواء الطلق يوم عيد العمال، كانوا يأخذون معهم كميات كبيرة منها إلى أي من أماكن إقامتهم التعسة التي هجروا بيدمونت لأجلها. وكانوا يحملون معهم أيضاً العلب المعدنية الحمراء الفاقعة المليئة بشراب «كينغ»... والتي كان لها غطاء على شكل دائرة معدنية مدمغة تحتاج إلى مطرقة مخلبية لفتحها ... وكان البعض منهم، من أصحاب الأذواق الرفيعة جداً، يأخذون معهم بعض الزجاجات من مياه الحنفيات في البلدة. وكان ذلك قبل أن يفكر أي كان بشراء مياه معبأة في زجاجات. لا يمكن للناس في بيدمونت اليوم تصور ذلك: دفع دولار مقابل زجاجة من المياه! كانت لدينا مياه جيدة في بيدمونت، ولو سألت أحدنا لقال إنها أفضل مياه شفة في العالم.

نقانق بولونيا دنت، ومياهنا، وشراب كينغ، ونزهة الهواء الطلق التي كان ينظمها مصنع الورق سنوياً، جميعها ساعدت في تمسك أهالي بيدمونت الشديد ببلدتهم، حتى أولئك الذين كانوا يعيشون في الشتات. وكان هناك وادينا أيضاً. لم أعرف مطلقاً أي أناس ملونين مغرمين أكثر (من سكان بيدمونت الملونين) بمناظر الجبال والمياه والأزهار والأشجار، وبصيد الأسماك والطرائد.

وكنا نتفوق، على امتداد ذاكرة أي منا، على الأولاد البيض في الصيد والقنص والسباحة. لكننا لم نكن نتباهى ببنادق صيدنا لأن ذلك قد يقلق البيض إلى حد مفرط. أما الشاحنات الصغيرة والموسيقى الريفية فقد كانت تعتبر خروجاً عن الحد، على الأقل في الخمسينات من القرن الماضي. ولكنها وصلت هي أيضاً، بمرور الزمن، عند تأثير الدمج العنصري على الجيل الثاني. وأحسب أن هذا ثمن التقدم.

ملحوظة: نُشر هذا المقال لأول مرة في المجلة الإلكترونية «المجتمع والقيم الأميركية» التابعة لوكالة الإعلام الأميركية، المجلد 1، العدد 10، آب/أغسطس، 1996.

نُشر بإذن من البروفسور هنري لويس غايتس جونيور.

ملحق
بيدمونت اليوم
مارك جاكوبس

بيدمونت مدينة صغيرة تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من (ولاية) وست فرجينيا، أصبحت اليوم أصغر مما كانت عليه عندما ترعرع فيها البحاثة الشهير هنري لويس غايتس جونيور. عندما ولد غايتس سنة 1950، كان عدد سكان بيدمونت 2,565 نسمة. أما اليوم، فيسكن البلدة وفقاً لأحدث تقديرات مكتب إحصاء السكان الأميركي 1,014 نسمة. وتعتبر مقاطعة مينرال برمتها، التي تقع فيها بيدمونت، بسكانها البالغ عددهم حوالي 27,000 شخص، منطقة غير كثيفة السكان.

كان غايتس بين أوائل الطلاب الأميركيين – الأفارقة الذين تعلموا في المدارس الرسمية الحديثة الدمج العنصري في بيدمونت في أعقاب قرار المحكمة العليا سنة 1954 في قضية براون ضد المجلس التربوي. وقد أظهر غايتس اهتماماً بقضايا الحقوق المدنية المحلية، وكعضو في مجموعة عرفت في ما بعد بـ «الرباعي المخيف» ضغط على مطعم وملهى «بلو جاي» لكي يطبق الدمج العنصري.
لم يتغير إلاّ القليل نسبياً منذ صدور مذكرات غايتس سنة 1996 حول نشأته في بيدمونت. فلم يظهر هناك أي أرباب عمل جُدد كبار. ومصنع وستفاكو للورق لا زال يعمل. وقد عمل والد غايتس كمعظم معاصريه من الرجال في مصنع وستفاكو. وما زال المصنع الذي تملكه شركة «ميد وستفاكو كوربوريشن»، المصدر الرئيسي للوظائف بالنسبة لسكان بيدمونت، السود والبيض على السواء.

ويتحدث القس بارت تومبسون، راعي كنيسة الثالوث الأقدس الميثودية المتحدة في بيدمونت، عن حاجة البلدة إلى التغيّر مع «الاقتصاد المتغيّر» للبلاد. ويشير قائد الشرطة، بول كراليوتز، الذي عاش في بيدمونت 28 سنة، إلى عدد من المشاريع التجارية الصغيرة كمؤشر على التقدم. وأعربت ماري لو كادي، العاملة في جريدة بيدمونت هيرالد، عن نفس القدر من التفاؤل. وهي تقول إن البلدة هي «في الأساس نفسها» كما كانت عندما صدرت مذكرات غايتس. وتضيف كادي، التي وُلدت وترعرعت في بيدمونت: «لا أود العيش في أي مكان آخر. إنها مدينة صغيرة عظيمة ... يسودها جو البلدات الصغيرة.»

وتشتهر بيدمونت ومقاطعة مينرال كاونتي بجمالها الطبيعي القاسي بسبب موقعها في جبال أليغاني. وما زالت هذه المنطقة الريفية في وِست فرجينيا تتمتع بجاذبية قوية في أعين وذاكرة الذين يعرفونها، لا تقل عن جاذبيتها وسحرها بالنسبة لمؤلف كتاب «الناس الملونون».

هنري لويس غايتس جونيور هو أستاذ (كرسي) دبليو.إي.بي. ديبوا للعلوم الإنسانية في جامعة هارفرد، ورئيس برنامج الدراسات الإفريقية والأميركية الإفريقية في هارفرد. وهو كاتب مقالات وناقد ومُعلق اجتماعي بارز تتضمن مؤلفاته كتب «شخصيات باللون الأسود» و «القرد المعبّر».

ملحوظة: إن الآراء الواردة في هذا المقال لا تعبر بالضرورة عن آراء أو سياسات الولايات المتحدة.

المراجع

ADDITIONAL READINGS ON THE UNITED STATES
AND ITS CITIZENS TODAY

Alba، Richard D. and Victor Nee. Remaking
the American Mainstream: Assimilation and
Contemporary Immigration. Cambridge، :MA
.2003 ،Harvard University Press

Barkan، Elliott Robert. And Still They :Come
to 1920 ،Immigrants and American Society
،1990s. Wheeling، IL: Harlan Davidson the
.1996

Barone، Michael. The New Americans: How
the Melting Pot Can Work Again.
،Washington
.2001 ،DC: Regnery Publishing

Bellah، Robert N. et al. Habits of the :Heart
Individualism and Commitment in American
Life، updated edition with a new .introduction
Berkeley، CA: University of California ،Press
.1996

Brooks، David. On Paradise Drive: How We
Live Now (And Always Have) in the Future
.2004 ،Tense. New York: Simon & Schuster

Cullen، Jim. The American Dream: A Short
History of an Idea That Shaped a Nation. New
.2003 ،York: Oxford University Press

D'Souza، Dinesh. What's So Great About
America. Washington، DC: Regnery
.2002 ،Publishing

.Earle، Robert L. and John D. Wirth، eds
Identities in North America: The Search for
Community. Stanford، CA: Stanford University
.1995 ،Press

Garreau، Joel. The Nine Nations of North
.1981 ،America. Boston: Houghton Miffl in

Halberstam، David، ed. Defi ning a :Nation
Our America and the Sources of Its .Strength
Washington، DC: National Geographic ،Society
.2003

Hanson، Victor Davis. Mexifornia: A State of
Becoming. San Francisco: Encounter ،Books
.2003

Himmelfarb، Gertrude. One Nation، Two
.1999 ،Cultures. New York: Knopf

Huntington، Samuel P. Who Are We?: The
.Challenges to America's National Identity
.2004 ،New York: Simon & Schuster

Jacoby، Tamar، ed. Reinventing the Melting
Pot: The New Immigrants and What It Means
،to Be American. New York: Basic Books
.2004

Karabell، Zachary. A Visionary Nation: Four
Centuries of American Dreams and What Lies
.2001 ،Ahead. New York: HarperCollins

Ledeen، Michael. Tocqueville on American
Character: Why Tocqueville's Brilliant
Exploration of the American Spirit Is as Vital
and Important Today as It Was Nearly Two
Hundred Years Ago. New York: St. Martin's

.2000 ،Press
.Lindsay، James M. and Audrey Singer
Changing Faces: Immigrants and Diversity in
the Twenty-First Century. Washington،
:DC
.2003 Brookings، June
/http://www.brookings.edu/views/papers
htm.20030601/lindsay
Lubar، Steven D. and Kathleen M.
.Kendrick
Legacies: Collecting America's History at the
Smithsonian. Washington، DC:
Smithsonian
.2001 ،Institution Press
:McElroy، John Harmon. American Beliefs
What Keeps a Big Country and a Diverse
.1999 ،People United. Chicago: Ivan R. Dee
Matthews، Christopher. American:
Beyond
Our Grandest Notions. New York: Free
،Press
.2002
Powell، Colin L. My American Journey.
New
.1995 ،York: Random House
Rieder، Jonathan and Stephen Steinlight،
.eds
The Fractious Nation?: Unity and Division in
Contemporary American Life. Berkeley،
:CA
.2003 ،University of California Press
Roberts، Sam. Who We Are Now: The
Changing Face of America in the Twenty-
fi rst
.2004 ،Century. New York: Times Books
Sides، Hampton. Americana: Dispatches from
the New Frontier. New York: Anchor
،Books
.2004
Singer، Audrey. The Rise of New
Immigrant
،Gateways. Washington، DC: Brookings
.2004 February
/http://www.brookings.edu/urban/pubs
gateways.pdf__20040301
.Smolan، Rick and David Elliot Cohen، eds
،New York: DK Publishing .7/24 America
.2003
.Smolan، Rick and David Elliot Cohen، eds
State Book Series). New) 7/24 America
:York
.2004 ،DK Publishing
Sowell، Thomas. Ethnic America: A
.History
.1981 ،New York: Basic Books
U.S. Department of State. International
Information Programs. About America:
The
Constitution of the United States of America
With Explanatory Notes. Washington،
:DC
.2004 U.S. Department of State، July
/http://usinfo.state.gov/products/pubs
/constitution
Wolfe، Alan. One Nation، After All: What
Middle-Class Americans Really Think about
،God، Country، Family، Racism، Welfare
Immigration، Homosexuality، Work، the
،Right
the Left and Each Other. New York:
Viking
.1998 ،Press
The U.S. Department of State assumes no
responsibility for the content and availability of the
resources from other agencies and organizations
listed above. All Internet links were active
30 as of
.2004 December

مصادر الإنترنت

SELECTED ONLINE RESOURCES FOR INFORMATION
ABOUT THE UNITED STATES AND ITS CITIZENS
TODAY
AEI: American Enterprise Institute for Public
Policy Research. Political and Social Studies
http://www.aei.org/research/default.asp?filte
r=social
Brookings Institution. Research Topics
http://www.brookings.edu/index/research.htm
Hoover Institution. Stanford University
/http://www-hoover.stanford.edu
Kaiser Family Foundation. Immigration in
America
/http://www.kff.org/kaiserpolls
pomr100604pkg.cfm
Library of Congress
http://www.loc.gov
Library of Congress. American Memory
/http://memory.loc.gov/ammem
Manhattan Institute
/http://www.manhattan-institute.org
Population Reference Bureau. The American
People
http://www.prb.org/AmericanPeople
Population Reference Bureau. Race/Ethnicity
http://www.prb.org/template.cfm?template=I
nterestDisplay.
244=cfm&InterestCategoryID
Smithsonian
/http://www.si.edu
U.S. Census Bureau
/http://www.census.gov
Briefs 2000 U.S. Census Bureau. Census and
Special Reports
/http://www.census.gov/population/www
briefs.html/cen2000
U.S. Citizenship and Immigration Services (USCIS)
http://uscis.gov/graphics/index.htm
U.S. Citizenship and Immigration Services USCIS). Offi ce of Citizenship)
/http://uscis.gov/graphics/citizenship
index.htm
U.S. Department of State. International Information Programs. Diversity in the United
States
/http://usinfo.state.gov/usa/diversity
U.S. Department of State. International Information Programs. U.S. Society. Culture
Values &
/http://usinfo.state.gov/usa
U.S. National Archives and Records (Administration (NARA
http://www.archives.gov/index.html
U.S. National Archives and Records Administration (NARA). Exhibit Hall
/http://www.archives.gov/exhibit__hall
index.html
U.S. National Archives and Records Administration (NARA). The National Archives
Experience
http://www.archives.gov/national__
__archives
experience/index.html
U.S. National Archives and Records Administration (NARA). Our Documents
/http://www.ourdocuments.gov
&index.php?fl ash=true
The Urban Institute
http://www.urban.org
The Urban Institute. Immigration Studies
http://www.urban.org/content/
/IssuesInFocus
immigrationstudies/immigration.htm

The Urban Institute. Research by Topic
http://www.urban.org/Template.
=cfm?Section
62=ByTopic&NavMenuID
The U.S. Department of State assumes no
responsibility for the content and
availability of the
resources from other agencies and
organizations
listed above. All Internet links were active
30 as of
.2004 December

ELECTRONIC JOURNAL FROM THE U.S. DEPARTMENT OF STATE

BUREAU OF INTERNATIONAL INFORMATION PROGRAMS

http://usinfo.state.gov/